دفاتر الحوار



ترجمة: يوسف ابراهيم الجهماني







ملفات أدبية

* ملفات أدبية .
* غوركي ــ باسترناك ــ حمزاتوف
*ترجمة : يوسف ابراهيم الجهماني .

* الطبعة الأولى ١٩٩١ .
* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع .
سورية ــ اللاذقية ــ ص.ب 101 ــ هاتف 23339

ترجمة: يوسف ابراهيم الجهماني

ملفّات أدبيّة

غوركي - باسترناك - جزانوف

مقدمة المترجم

يتناول هذا الكتاب الحياة السياسية ومسيرة الإبداعات الأدبية لثلاثة أدباء سوفييت عظام . مكسيم غوركي ، بوريس باسترناك ورسول حمزاتوف ، من خلال ما كتب عنهم أخيراً في الصحافة السوفييتية من صفحات كان قسم كبير منها مجهولاً إلى يومنا هذا .

أفرِدَ الباب الأول لمكسيم غوركي بنبذة عن سيرة حياته الأدبية ، تلتها مقالة عنه أخذت من كتاب صدر في نيويورك لبوريس تيمير يازيف انينكو تحت عنوان «يوميات لقاءاتي ـ حلقة التراجيديا» . يتحدث فيها عن بعض ذكرياته مع الأديب غوركي ، كما يضمنها بعضاً من نقد لأدبه . أما المقالة الثالثة فهي عبارة عن مقالة للشاعر والمترجم والناقد الأدبي فلاديسلاف خوداسيفيتش كتبها في باريس عام 1936 عن ذكرياته ولقاءاته مع غوركي تصف طباع الكاتب وعاداته . المقالة الرابعة والأخيرة بقلم تامارا ماتيليف تحت عنوان «تراجيديا غوركي» تتحدث بشكل خاص عن علاقة غوركي بلينين وتذبذب هذه العلاقة صعوداً وهبوطاً وخاصة ما ارتبط منها بالتوجهات السياسية .

يتحدث الباب الثاني عن معجزة الإبداع الأدبي ، عن الشاعر بوريس باسترناك . يتضمن هذا الباب نبذات من ابداعات الشاعر يتخللها حديث عن أهم مواقف الشاعر الأدبية والسياسية وينتهي الباب بنشر رسالة كان قد بعثها بوريس باسترناك إلى معلمه الأول بروسوف ولم تنشر .

أما الباب الثالث والأخير فيتناول الشاعر السوفييتي المعاصر رسول حمزاتوف من خلال سرد لأهم مفاصل حياته الإبداعية ومساهماته السياسية ، أما موقفه الحياتي والسياسي والأدبي فيتناوله الباب من خلال مقابلة أجراها معه الصحفي يفغيني دفورنيكوف . وينتهي هذا الباب بقصيدة وجهها الشاعر حمزاتوف إلى صديقه الأديب السوفييتي جنكيز ايتماتوف ، يتحدث فيها عن بيروت وذكرياتهما المشتركة واصفاً المدينة بشكل خاص ولبنان بشكل عام طبيعة وسكاناً متطرقاً إلى ما يحدث هنالك من كوارث في متن الحرب الأهلية المستعرة .

الباب الاول

غوركي ـ سيرة حياة

غوركي هو كنية مستعارة ، أما اسمه الحقيقي فهو الكسي مكسيموفيتش بيشكوف . ولد في 16 (28) آذار عام 1868 في مدينة نوفغوارد ، التي تسمى حالياً «غوركي» وتوفي في 18 حزيران عام 1936 في غوركي القريبة من موسكو . هو كاتب روسي ـ سوفييتي ومؤسس مذهب الواقعية الاشتراكية في الأدب ، كما يعتبر من مؤسسي الأدب السوفييتي .

ولد غوركي في أسرة كان ربها يعمل نجاراً ، أما والدته كاشيرينا فهي إبنة مالك مصبغة . فقد مكسيم والده باكراً مما اضطره إلى بدء حياة عملية منذ الصبا ، حيث عمل عتالاً وخبازاً .

لم يذهب غوركي إلى المدارس كأقرانه ، بل علم نفسه بنفسه . شارك في عمل الحلقات الشعبية السرية وكان يقوم ببث النشاط الدعائي بين العمال والفلاحين . اعتقل عام 1889 وأخضع بعد الافراج عنه للمراقبة الدائمة من قبل الشرطة . جال في روسيا مرتين ، الأولى بين عامي 1888 ـ 1889 والثانية بين عامي 1891 ـ 1892 .

في 12 أيلول عام 1892 نشرت أولى أقصوصاته بعنوان «ماكار تشودار» . بعدها ساعده كورلنكو على الدخول إلى عالم الأدب .

ندد غوركي في دراساته ومقالاته التي كتبها في التسعينيات بالبرجوازية الصغيرة ودافع عن حقوق الفقراء والعمال . وقد لاقت مقالاته وأقصوصاته المنشورة بين

عامي 1898 ـ 1899 استقبالاً حسناً في روسيا وفي العالم . وكأديب ثوري ، ساهم في رفع مكانة الطبقة العاملة وطور منذ التسعينيات تقاليد الواقعية والرومانسية في الأدب التي سادت في القرن التاسع عشر .

صور غوركي في قصصه الواقعية «بيطار الخيل» ، «تشيلكاش» ، «زوجات آرلوف» وغيرها ، صعود الوعي الاجتماعي السياسي الجديد عند الشعب وأحلامه عن العدالة كما أشار فيها إلى عدم نضوج الاحتجاج والمعارضة ونقد الأعمال الفردية .

تميزت أعمال غوركي في عصر الشباب بالرومانسية الأسطورية . منها «الكهلة ازيرغيل» عام 1895 ، «أغنية عن سوكول» عام 1899 ، «أغنية عن طائر النوء» عام 1901 و «الشجاعة المتهورة» ، التي دعا فيها للقيام ببطولات ثورية .

في نهاية القرن التاسع عشر قاده البحث الفكري والاجتماعي إلى الماركسية . حيث تعاون مع الاتجاه اللينيني في الشرارة «الاسكرا» وساهم مساهمة فعالة في الحركة الثورية .

دعا غوركي ، في منشوره الصادر عام 1901 ، بمناسبة تقويض الحكومة للمظاهرة الطلابية إلى الإطاحة بالقيصرية . وفي العام نفسه وبسبب مشاركته في العمل الطباعي السري نفي إلى آرزاماس . وقد احتج فلاديمير اليتش لينين على نفي «الكاتب الأوروبي الشهير . . .» .

بدأ غوركي تأسيس مذهب الواقعية الاشتراكية للقرنين التاسع عشر والعشرين عن طريق رواياته وقصصه . حيث عرض في روايته «فوما غاردييف» الطباع الخاصة بالبرجوازية الروسية وايديولوجيتها . أما أول مرة كان يفصل فيها البروليتاريا عن الجماهير فكانت في روايته «الثلاثة» الصادرة عام 1900 .

تعرف غوركي بين عامي 1899 ـ 1900 على كل من ليون تولستوي وتشيخوف ، اللذين قدرا عبقريته عالياً وفي أثناء ذلك بدأ يقترب من الوسط الفني المسرحي في موسكو ، حيث عرضت مسرحيته «البرجوازي الصغير» .

وتمكن من توحيد الكتاب الواقعيين الديمقراطيين (سيرافمفتش ، كوبرين ، سكيتالتيس ، بونين ، فيرسايف وغيرهم) من خلال دار نشر «المعرفة» . أصبح عرض مسرحيات غوركي أثناء فترة الصعود الثوري حدثاً من الأحداث الهامة ، وكانت تستدعي خروج المتظاهرين احتجاجاً على القيصرية . وظهر العامل الروسي لأول مرة في مسرحية «البرجوازي الصغير» كبطل جديد للتاريخ . أما مسرحيته «في الحضيض» الصادرة عام 1902 فتصور معاناة الجماهير الشعبية من الرأسمالية وتنزل إلى أسفل السلم الاجتماعي لتصور الحياة الواقعية للناس والضرر الناتج عن الدعوات المشبعة بالنفاق والصادرة عن دعاة الإنسانوية والتسامح المسيحي . كما عبر من خلال شخصية ساتين بطل «في الحضيض» ، وفي قصيدته الشعرية الغنائية الفلسفية «الإنسان» الصادرة عام 1903 عن عظمة الإنسان وقدراته العقلية الخارقة . ونقد من خلال مسرحياته «المصطافون» 1904 ، «أبناء الشمس» و «الهمجيون» 1905 تلك الشريحة المنغلقة على نفسها بحجة «النقاء العلمي» ودعا المثقفين للإبداع من أجل الشعب .

ساهم غوركي مساهمة فعالة في أحداث عام 1905 الثورية . فسجن في قلعة بتروبافلوفسكي بسبب المنشور الذي أصدره في 9 كانون الثاني عام 1905 ، والذي دعا فيه للإطاحة بالطبقة المهيمنة (حُرِرَ من السجن تحت الضغط القوي للمجتمع الدولي) .

انتسب غوركي في صيف عام 1905 إلى حزب البلاشفة وشارك في تحرير الجريدة العلنية البلشفية الأولى «الحياة الجديدة» ، التي ترأس تحريرها لينين ، وكان أول لقاء له مع لينين في 27 تشرين الثاني عام 1905 في مدينة بتروغراد . زود غوركي عمال موسكو بالأسلحة والنقود في أيام انتفاضتهم في شهر كانو الأول عام 1905 . وفي بداية عام 1906 وبقرار من الحزب سافر متخفياً إلى أمريكا ، وهناك كان دائماً يبث دعاية مستمرة لدعم الثورة الروسية ، على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهها . كما نقد بحدة من خلال مقالاته ودراساته

الصادرة تحت عنوان «في أمريكا» و«مقابلات» عام 1906 ، نفاق الديمقراطية البرجوازية .

في سنوات 1905 ـ 1907 الثورية صدرت أهم أعماله المعبرة عن مذهب الواقعية الاشتراكية . وعرض في مسرحية «الأعداء» عام 1906 تطور حركة البروليتاريا في نضالاتها وانتفضاتاتها وصولاً حتى النضال السياسي والتقرب المضطرد للبلشفية من الجماهير . وأول مرة يصور فيها نضال ثورة البروليتاريا ـ بقيادة الحزب من أجل الاشتراكية وولادة الإنسان الجديدة في خضم هذا النضال ـ كان في رواية «الأم» ، التي صدرت عام 1906 . في عام 1907 شارك غوركي في المؤتمر الخامس للحزب ، الذي عقد في لندن . أشار لينين في حديث له مع غوركي بعد قراءته لرواية «الأم» وهي ما تزال بخط اليد إلى حداثة هذه الرواية . تلك الرواية التي أصبحت بعد ترجمتها إلى العديد من لغات العالم كتاب الطاولة لملايين البشر .

عاش غوركي بين عامي 1906 ـ 1913 في ايطاليا في جزيرة كابري . وفي سني الردة ، تقرب من تجمع «إلى الأمام» وعكس تقربه الخاطىء هذا في قصته «الإعتراف» ، التي صدرت عام 1908 . إلا أن لينين لم يقف صامتاً أمام ذلك ، إذ أقدم على توجيه رسائل عدة إليه مشبعة بنقد لاذع ، الامر الذي ساعد الكاتب في العودة إلى الأسس الماركسية .

أقدم غوركي في «الأخيرون» 1908 ، «فاسيا الحديدي» 1910 و«بلدة اوكوروف» 1909 على فضح النظام البوليسي وتناقضات عالم البرجوازية الصغيرة وفي الوقت نفسه أكد على الأفكار الثورية ، التي بدأت تخترق أوساط البرجوزاية الصغيرة والفلاحين في أعمال أخرى مثل «الصيف» 1909 و«حياة فاتفيكا كاجمياكين» 1910 ـ 1911 . قدر لينين عالياً مجموعة غوركي الصادرة تحت عنوان «قصص من ايطاليا» 1911 ـ 1913 ، التي صور فيها أمزجة الاشتراكيين الايطاليين والبروليتاريا الايطالية وقدس الإنسان العامل . هَزِءَ غوركي من خلال كتابه الهجائي «الأساطير الروسية» 1912 و1917 من الشوفينية ومن منظمة

«المائة السود» الرجعية ومن «أدبيات القبور» لممثلي الاتجاه المنحط في الفن . أما أفضل إبداعات غوركي فصدرت عام 1910 وهي عبارة عن روايات بيوغرافية «الطفولة» و «في الناس» نشرت بين عامي 1913 ـ 1916 ، وصور فيهما بفنية رفيعة طريقة النضال الإنساني وصعوده من الحضيض حتى اكتساب الثقافة الرفيعة ماراً بطريق النضال من أجل الحرية .

في عام 1913 عاد غوركي إلى روسيا حيث عمل في الصحافة البلشفية «النجمة» ، «البرافدا» ومجلة «التنوير» . وقف غوركي ضد الحرب العالمية الأولى ، التي نشبت عام 1914 وأسس في العام اللاحق مجلة دعائية تدعو لمحاربة الحرب سميت «سفر التاريخ» وترأس قسمها الأدبي . وكان التوجه السياسي للمجلة مناقضاً لما دعا إليه لينين .

لم يقيم غوركي القوة التنظيمية للحزب ولا قوة البروليتاريا وقدرتها على الدخول في جبهة واحدة مع الفلاحين تقييماً صحيحاً ، بل انتحى منحى الاعتماد على الفردانية الفوضوية وعلى المالكين الصغار ، الأمر الذي انعكس في حلقات أشعاره «أفكار ليست بنت وقتها» ، المنشورة بين عامي 1917 ـ 1918 في صحيفة «الحياة الجديدة» شبه المنشفية ، التي كان يحررها بنفسه . ومرة أخرى لم يقف لينين مكتوف اليدين ، إذ وجه نقداً حاداً لغوركي ساعياً مرة أخرى لإبعاده عن ارتكاب الأخطاء بحق الثورة . وبعد ذلك ، اعترف غوركي مراراً بأن لينين كان على حق في موقفه ذلك . بين عامي 1918 ـ 1921 شارك غوركي بنشاط في بناء الثقافة الاشتراكية وعلى الأخص في تأسيسه لدار نشر «الثقافة العالمية» وغير ذلك من الأعمال .

في سنوات الحرب الأهلية تصدى غوركي للجوع والدمار وعمل جاهداً للحفاظ على القيم المادية التاريخية وحمايتها وتقديم المساعدات المادية للعلماء ، الذين أصبحوا تحت خط الجوع . ودعا في مقالاته المنشورة بين عامي 1919 ـ 1920 قوى العالم التقدمي للدفاع عن الثورة .

في 23 نيسان عام 1920 وبمناسبة الذكرى الخمسين لميلاد لينين ، تحدث غوركي ملياً عن مساهمات لينين العظيمة في تقدم البشرية . وفي تموز عام 1920 حضر المؤتمر الثاني للكومنترن .

في عام 1921 غادر غوركي البلاد بضغط من لينين للعلاج من التدرن الرئوي «السل» ، الذي تفاقم عنده وعولج في كل من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا . وفي نيسان عام 1924 قطن في ايطاليا «سورنتو» .

أسس غوركي في الخارج بتكليف من لينين لجنة جمع المساعدات لجائعي الفولقا وأثناء عمله هذا كان دائماً يخطب منافحاً عن ثورة اوكتوبر . وابتداءً من عام 1922 بدأت تظهر عنده بعض التخوفات التي عبّر عنها في مقالاته عندما قام بتضخيم الخطر الدائم من المنارخية الفلاحية والانسانوية المتضخمة ووقف موقف المعارض من اضطهاد اليساريين الثوريين .

في عام 1922 صدرت قصة «جامعاتي» وهي الجزء الثالث من سيرة حياته الأدبية . أما صورة لينين في مذكراته فكانت : الإنسان بحرف كبير ، الديمقراطي ، القائد الجماهيري البسيط كالحقيقة . كما يعود له الفضل في توضيح الصور الفنية لليون تولستوي ، تشيخوف ، كورلنكو ، كراسين وغيرهم . وفي عام 1925 نشر رواية «قضية ارتامونوف» ، التي صور فيها تاريخ ثلاثة اجيال لأسرة برجوازية على أرضية الحياة الاجتماعية الروسية من اصلاح عام 1861 حتى اوكتوبر . وفي عام 1928 ـ 1929 عاد إلى الاتحاد السوفييتي وأخذ يتجول في البلاد وكتب انطباعاته التي صدرت عام 1929 تحت عنوان «في بلد السوفيت» . وفي عام 1931 عاد إلى الوطن نهائياً وباشر نشاطاً أدبياً واجتماعياً واسعاً . وتميز بتلك المواقف ، التي دعا فيها إلى السلام ، الديمقراطية والاشتراكية أما نقده فانصب بشكل رئيس على الفاشية والحروب .

كان غوركي المنظم الرئيسي الأول لاتحاد الكتاب السوفييت ، الذي تأسس عام 1934 . حيث ساهم بنشاط في تطوير آداب شعوب الاتحاد السوفييتي . لقد أسس وترأس تحرير العديد من المجلات والكتب الدورية كـ «نجاحاتنا» ،

«الاتحاد السوفييتي في البناء» ، «في الخارج» ، «تاريخ الحرب الأهلية» ، «تاريخ المعامل والمصانع» ، «حياة الناس الرائعين» ، «مكتبة الشاعر» وغيرها .

وما ان بدأ عصر ظهور التمثيليات حتى باشر غوركي بكتابة قصص تناسب هذا النوع الجديد من الفن فكتب «ايغور بولتيشوف وغيره» 1932 ، «وستيغايف وغيره» 1933 ، «ڤاسياالحديدي» 1935 بطبعة ثانية وقد أكد من خلالها جميعاً على حتمية فناء الرأسمالية وانتصار الثورة الاشتراكية .

عبرت الرواية الملحمة المتعددة الاجزاء «كليم سامغين» ، التي صدرت عن غوركي بين عامي 1925 ـ 1936 ولم يستطيع انهاء الجزء الرابع منها ، عن الانتصارات الباهرة لمذهب الواقعية الاشتراكية في الادب . وحسب قول لوناتشارسكي يعبر غوركي في هذه «. . . البانوراما المتحركة لعقود من الزمن . . .» عن الاحداث التاريخية لاربعين عام من الحياة الروسية قبل الثورة وعن الصراع الاجتماعي الفكري الحاد لتلك الحقبة . أما فكرة الرواية الرئيسية فكانت الحرب ضد البرجوازية والفردانية ، اللتين سادتا في روسيا قبل الثورة واستمرتا بالظهور عند شرائح مختلفة وقفت في الظاهر مع الثورة بعد انتصارها لكنها كانت تحمل حقداً عميقاًعليها عبرت عنه في محاولاتها المستمرة لتقويض الثورة من الداخل بطرق خفية .

كان غوركي فنان كلمة عظيم وناقداً ادبياً بارعاً تمتع بشعبية واسعة . صبت جميع افكار غوركي عن دور العمل واهمية الفولوكلور للثقافة الوطنية وعن الوطنية كمصدر لقوة الادب الروسي وعن الانسانوية العظيمة للادب السوفيتي في البحث عن علم اخلاق سوفيتي منذ العشرينيات . وفي الثلاثينيات انتهى من وضع الاسس النظرية لمذهب الواقعية الاشتراكية ، التي اختصرها بـ«. . . واقعية حياة الناس ، التي . . . ستعيد بناء العالم . . .» . واعتبر ان مؤشرها الرئيس هو قدرتها على عرض الحقيقة عارية لخدمة مستقبل الثورة والنظر الى الماضي «. . . من علٍ . لخدمة المستقبل» (مقالات عام 1933 «النقاط والصغائر» ، «عن الواقعية الاشتراكية») .

تابع غوركي بلا كلل أو ملل الدفاع عن الحقيقة الرومانسية ، التي ظهرت في بدايات تشكل الفن السوفيتي . واعتبر المهمة الاولى للكتاب السوفييت هي تربية الانسان الاشتراكي الجديد .

تنحصر عظمة واهمية ابداعات غوركي العالمية في تعبيره عن افكار واعمال الثورة البروليتارية الروسية ومساعدته في بناء المجتمع الاشتراكي والثقافة السوفيتية الجديدة .

أثر ابداع غوركي كثيراً على الادب العالمي وممثليه كرولان ، فرانس ، شوي ، جورج لندن ، لوسين وغيرهم من الكتاب التقدميين ، الذين قيموا عالياً مساهماته في الفن العالمي الجديد .

وفي هذا المجال يحتل قول لينين عن غوركي اهمية كبيرة عندما يصفه بالكاتب البروليتاري ، الذي «... ربط نفسه بقوة ... بالحركة العمالية في روسيا وفي العالم اجمع ....» .

حرك النقد الماركسي لاعمال غوركي حتى قبل ثورة اوكتوبر ، المقدم من قبل لونا تشارسكي وشا اوميان صراعًا حاداً حول الفهم الصحيح لابداعات غوركي المختلفة .

أما في العصر السوفيتي فقد اقدم العديد على دراسته وهذا ما نجده في كتابات لونا تشارسكي ، بالوخاتي ، غروز ديف ، سينيتسكي ، بيكسانون واخرين في العشرينيات والثلاثينيات . وبعد سنوات الحرب اصبحت اعمال غوركي جزءاً من تاريخ الادب السوفيتي .

في 20 حزيران عام 1936 شيع جثمان غوركي في موسكو ودفن في جدار الكريملين ـ أطلق اسمه على مدينة نوفغوراد وعلى المسرح الدرامي الكبير في لينينغراد وغيرها .

كما أشيدت له متاحف في كل من موسكو ، غوركي ، كازان وكوبيتشيف في اوكراينيا .

مكسيم غوركي وبوريس انينكو

نورد هنا مقتطفات من كتاب بوريس تيمير يازيف انينكو* «يوميات لقاءاتي . حلقة التراجيديا» ، الذي صدر عام 1966 في نيويورك .

كان عمري لايتجاوز الحادية عشرة عندما رأيت غوركي لأول مرة . كان يعيش حينها في حي ميز لنيولا في مدينة كوكال في فنلندا . ذلك الحي الذي كان يعج بشكل دائم برجال ذائعي الصيت من شعوب مختلفة : اقرباء ، اصدقاء وزوار غير معروفين ، يصلون الى كوكال لتمضية يوم في ضيافة الكاتب ومنهم من كان يمكث هناك اسبوعاً او شهراً .

اعتاد غوركي ، اثناء مكوثه في ميز ، على العمل صباحاً ، وكان لا يُرى في تلك الساعات . وبعد كل حفلة افطار (كان يتواجد حول مائدته عادة لا أقل من خمسة عشر الى عشرين شخصاً) كان يتوجه الى الحديقة .

---

* بوريس تيمير يازيف انينكو ـ ولد عام 1889 في اسرة رجل من تنظيم «الارادة الشعبية» أتهم أبوه باغتيال الكسندر الثاني . تعرف بوريس من خلال والده على العديد من الشخصيات الادبية والفنية الهامة في عصره . درس الفن في بتربورغ ثم في باريس . كان فناناً متعدد المواهب وكان الرسم أولها حيث رسم صور العديد من المشهورين في روسيا وخارجها وقد صدرت له كتب عديدة .

أحب الجميع غوركي وخاصة الاطفال ، الذين كان يجلب لهم ألعاباً كثيرة ومتنوعة . أما قابليته للمرح فلم تنضب . كنا نلعب لعبتي «القوزاق» و «قطاع الطرق» متوزعين في حديقة كبيرة تغص باشجار الشوح ، ونلعب بالمضرب مستخدمين حائط السراي . إن أكثر الألعاب إثارة بالنسبة لغوركي ، كانت تلك ، التي يتم التنكر فيها . كان يتنكر لابساً قناعاً أحمر ، كساحر أو كعفريت أو كقرصان ، وأحياناً مرتدياً ملابس نساء واخرى مرتدياً سترته بالمقلوب ومعلقاً ببذته اغصان اشجار الشوح . . . الخ . وأحياناً اخرى يتنكر بلباس الشباب مقلداً حماسهم ويبهر بصبيانيته هذه ليس الا طفال فقط ، بل حتى اليافعين ـ كتاباً وفنانين وشخصيات سياسية وصحفيين .

في المساء ، عندما يكون الحر قد ابتعد ، كان غوركي يباشر لعبته المفضلة «في المدينة»* . كان يرمي العصي بقوة ومن مسافات بعيدة ، مثيراً بذلك حسد الآخرين ، وفي الغالب كان يخرج منتصراً . كان يشاركه هذه اللعبة عادة ليونيد اندرييف ، الكسندر كوبرين وايفان روكا فيشنيكوف .

كان يقام في حي ميز من مرة الى مرتين في الاسبوع العاب نارية . واثناء ذلك يقترب الجيران والفلاحون الفنلنديون المحليون من سور المنزل عادة . في احدى امسيات عام 1904 ، عندما بدا الظلام يخيم ، خرج غوركي إلى الروض الخارجي وسحب من الار ـ صواريخاً كانت معدة للاطلاق وقال ـ لا ألعاب نارية اليوم . مات تشيخوف وظهر فجأة التشنج على وجهه واسرع متوارياً في غرفته .

لم يكن غوركي عادة يستطيع اخفاء انهيار الدموع من عينيه . اكد في مذكرات صباه انه لم يبك إلا في تلك الحالات ، التي شعر فيها باهانة كرامته وإحساسه وهذا ما كان يحدث غالباً في الصبا . رايت غوركي باكياً اربع مرات :

* في المدينة ـ لعبة روسية شعبية ، ترمى فيها أهداف خشبية من مسافة عشرة أمتار فأقل بواسطة عصي ـ المترجم .

الاولى عندما وصل نبأ وفاة تشيخوف ، المرة الثانية ، عندما كنا نشاهد فلماً ميلودرامياً في استوديو التصوير السينمائي في مدينة كوكال ، بعد مشهد تقوم فيه كلبة الصياد بتحذير القطار كي يتوقف بعد أن شاهدت ابن الصياد غافياً على سكة القطار يهدده الموت .

ـ إنني مشاهد مربح جداً . هذا ما تفوه به وهو خارج من القاعة . أما المرة الثالثة فسمعت عويل غوركي في معهد سمولني اثناء أحد مؤتمرات السوفيتات الاولى ، إثر انشادهم نشيد الاممية . وفي المرة الاخيرة ـ في بتربورغ في محطة فنلندا عام 1921 عندما غادر غوركي البلاد . كنت من عداد مودعيه القلائل عندما اقترب رئيس المحطة من غوركي قائلاً : إن سائق القطار والوقاد يودان التعرف عليك .

ـ وأثناء مصافحة غوركي لهم ، كان يضغط على ايديهم السوداء بحرارة مردداً عبارة : فرصة سعيدة ، فرصة سعيدة .

في سنوات الثورة ، كنا نحن الفتيان مولعين برومانسية العمل السري والنضال الثوري . وبسبب مشاكساتي الثورية نصف الطفولية طُرِدْتُ من المدرسة الثانوية وتحدثت لغوركي عما حدث بفخر . فاجاب ، بطل ؟! قريباً سوف تقبل في الجامعة .

تعجبت من ذلك ، لكنه اوضح لي ذلك مبتسماً ، إنه لا يقصد تلك الجامعة ، التي فيها تتلى المحاضرات ، بل تلك التي تتكون من زنزانات فردية ذات شباك حديدية وأضاف ـ ستكون اكثر نظافة ! وفي تلك الفترة أشيع عن عنوان كتاب جديد له «جامعاتي» . في عام 1940 ظهر في روسيا السوفيتية فلم «جامعاتي» الذي أخرجه إم . دونسكي . لكن الفلم الآخر ، المأخوذ عن رواية غوركي «الام» والذي اخرجه فسيفالود بودافكين عام 1926 ، نال شعبية اوسع ، ولايزال في ايامنا هذه على وهجه وقوته وانسانيته ويعود الفضل بذلك لغوركي وبودافكين .

بقدر حماسنا للنضال الثوري ، كنا اكثر حماساً وولعاً لممارسة لعبة «الصراع الفرنسي» الذي كان مزدهراً في الحلقات الكنيسة . لعب غوركي بمهارة دور الحكم في مبارياتنا واعطى كل مشترك فيها اسماً مستعاراً . واعطاني كقاطن فنلندي دائم (كانت عائلة انينكو تملك عقاراً في كوكال ـ المحرر) لقب «زوبعة فنلندا» . كان عدوي في إحدى تلك المباريات (الفونس الرابع عشر ـ ملك اسباني» ، ذا الشعر الاسود والبشرة السمراء . قام بأداء هذا الدور طالب في المرحلة الثانوية . واثناء ذلك ، كان هذا الأخير يضغط على حنجرتي محاولاً خنقي . ومن دهشتي جلست على ركبتي وكان هذا الوضع من الجلوس صعباً ، ولم يكن هناك مخرج آخر . لم أكن قادراً على الصراخ واستسلمت للموت وفقدت الوعي . وعندما عاد إلي الوعي تلمست يدي غوركي ، الذي قال ـ «استيقظي يا زوبعة فنلندا ؟» ـ وتوجه بالحديث الى «الفونس الرابع عشر ـ اسبانيا» معلناً بلهجة المحكمة : ـ يدور هنا يا أصحاب الجلالة صراع فرنسي وليس معركة ثيران ولا داع هنالك للقضاء على العدو .

* * *

وصل إلى حي ميز لينتول بطلنا العالمي ايفان بودوبني ايضاً . وعلى الغداء وبعد أن تناول طعاماً دسماً ، قرر التفلسف وقال :ـ

ـ يوجد في روسيا ثلاثة مشاهير : أنا وغوركي وفيالتسوفا .

ـ وافق غوركي على هذا الراي بجدية تامة .

ـ إنتابتني الحيرة ، أما الضيوف فبدأوا يداهنون المضيف .

في عام 1911 انقطعت اخبار غوركي عني ، الذي كان مضطراً لمغادرة روسيا الى كابري في ايطاليا . أما أنا فقد سافرت في العام نفسه الى باريس (لاتمام دراساتي الفنية ـ المحرر) وعدت الى روسيا عام 1914 .

قرعت طبول الحرب . تفكك الوسط الأدبي ـ الفني وتبنت الاغلبية وجهة نظر دفاعية . اسس ليونيد اندرييف مجلة وطنية دعيت «الوطن» وترأس تحريرها .

وقد تلقى على اثرها من غوركي رسالة غير مريحة ، وأصبحت صداقتهم الطويلة على اثرها في خطر .

لقائي الثاني بغوركي كان في شهور ما قبل الثورة . في بتربورغ ، التي اصبحت تدعى بتروغراد .

تغير شكل غوركي الخارجي . لم يكن يرتدي حينها ذلك القميص الاسود الروسي الانيق ولم يكن يحتذي تلك الجزمة اللامعة ، بل أصبح يرتدي بذة متواضعة . وشعره الطويل ، الذي كان يسترسل على جبينة واذنية أصبح مقصوصاً الآن . وأصبحت هيئته متطابقة مع هيئة العامل الروسي الى درجة مدهشة . وهذا ما كان ظاهراً في عينية ، الثاقبتين جداً واللتين كانتا في الوقت نفسه تنظران عميقاً في ذات صاحبها .

استقبل العمال ـ البارزي عظام الوجه ، ذوي الأنوف العريضة والشوارب الغليظة والشعور المبعثرة ـ غوركي في المصانع والمعامل وفي مراكز البريد وفي سكك الحديد وفي كل مكان .

★ ★ ★

مع ثورة اكتوبر ، اصبحت شقة غوركي الكبيرة ، الواقعة في شارع كرونفيرسكي تعج دائماً بالناس وكان غوركي كعادته هادئاً لكنه كان يخفي خلف ابتساماته ونكاته توتراً واضحاً . أحاطه الناس من مختلف الفئات . قادة بلاشفة ، عمال ، زملاء في العمل الفني ، مثقفون مرتابون وارستقراطيون جزعون . . . كان يستمع ويحاور ويجادل متنقلاً من اجتماع الى آخر . واحياناً يضطر للسفر إلى سمولني .

في هذه المرحلة كانت نفس غوركي تعج شكا وريبة . . . لقد خلق فيه قصف الكريملين مجموعة من مشاعر متناقضة . وأحس بأن الفتحة الحاصلة من جراء القصف في قبة معبد فاسيلي بلوچين جرح في جسمه . لم يكن غوركي في مثل هذه الايام التراجيدية وحيداً بمثل هذا الشعور ـ بين البلاشفة ومؤيديهم . رأيت اناتولي لوناتشارسكي ، بعد أن عين مفوضاً شعبياً لشؤون الثقافة يصل الى

قمة الهستيريا مرسلاً رفضه واستقالته من منصبه احتجاجاً على ذلك ولم يستطع لينين ثنيه عن ذلك إلا بصعوبة .

حددت لجنة ـ «اتحاد الشخصيات الفنية» ، التي ترأسها غوركي وأسست منذ ايام الحكومة المؤقتة ـ شقة غوركي كمكان لعقد اجتماع لممثلي السلطة الجديدة . لكن غوركي وقع صباح يوم الاجتماعات مريضاً وارتفعت درجة حرارته حتى 39 درجة مئوية . اسرعت إليه في منتصف النهار واقترحت عليه تأجيل هذا الاجتماع . إلا أن غوركي لم يوافق على ذلك :

ـ اكثر طرافة أن اكون مضطجعاً !

أصابت غوركي الحمى وأخذ وجهه بالقتامة . كان يسعل بشدة وقطب حاجبيه وأغلق عينية واصبح بحاجة للراحة ، ولم يستطيع أن يتوقع شيئاً اكثر طرافة من ذلك . مع ذلك وضع احتياجاته الخاصة في المقام الأخير ، عندما تطرق الأمر للفن ، العلم والادب : اذ كان هائماً في الادب حتى النخاع . وبعد مغادرة الجميع وانتهاء الاجتماع ، قال ملوحاً بيده الجافة البيضاء في الفضاء :

ـ تبدأ الخبرة العظيمة . الشيطان وحده يعلم المنتهى .

سنرى ذلك . وعلى اية حال ، إن المستقبل دائماً اكثر إقناعاً من الماضي . ليتنا نقوم بالحفاظ على الماضي كقيمة عظيمة الاهمية . فالطبيعة لا تكرر اي شيء ولا تستطيع اعادة صورة زالت . نعم . . . والآن يجب عليَّ ان اتناول وصفة الدواء وإلا سيقوم الطبيب بقطع أذني . . .

وسرعان ما اقدم على تأسيس «لجنة الحفاظ على التماثيل الفنية والتحف التاريخية» . ولم تقم الثورة بتقدير خدماته الجليلة تلك .

★ ★ ★

اسس غوركي كذلك في فترة الشيوعية العسكرية وفترات فقدان الركائز المادية «لجنة تحسين الاوضاع المعاشية للعلماء» ـ كافحت هذه اللجنة الفقر الذي استشرى بين الملايين . كانت تقدم لمن يصلها من العلماء الذي كانوا يرتدون اثمالاً وأحذية ممزقة ويحملون اكياساً مثقوبة ويجرون عربات اطفال قديمة ،

وجبات غذاء موحدة : بعض من لحم الخيل ، بعض من الحبوب ، ملح ، دخان ، دهن وبعض الشوكولا . مرة وخلال أحد احاديثي مع غوركي هزئت من هذا العمل . فكر غوركي بذلك ملياً وقال بعدها :

ـ في كل انسان بعض من الطفولة ويقطن في داخل عالم ذي لحية شيباء طفل . لكن الثورة لم تحترمهم ابداً ، في الوقت الذي يجب أن نقدم لكل منهم قطعة من الشوكولا ، الأمر الذي يهدئهم ويعطيهم بعضاً من توازن داخلي مع الواقع . بعد ذلك اعيد تسمية هذه اللجنة لتصبح «لجنة دعم النشاط بين المثقفين» .

★ ★ ★

عام 1920 . . . . عام الطوابير الطويلة الجائعة . سافرت شتاءً الى إحدى المدن الجنوبية ، التي كان للتو قد إحتلها الحمر ، بصفتي عضواً في سوفييت «دار الفن» في بتربورغ ، التي ترأسها غوركي ايضاً بمهمة من قبله . أنا الواصل للتو من بتربورغ الجائعة أصبحت مصروعاً مما شاهدته هناك :

البازارات تعج بجبال الخبز ، العجين ، الزبدة ، الاجبان ، الاسماك وكل ما يخطر على بالك من أطعمة وكان الناس يسيرون في الشوارع وعلى وجوههم امارات الفرح ويتبادلون النكات . . .

كان السبب في ذلك كما أعتقد أنه لم يكن بعد قد أخذ مبدأ الاشتراكية العلمية بالانتشار في هذه المنطقة ، التي لا تزال حديثة التحرير من «الاستعباد الرأسمالي» . كنت مندهشاً ولم استطع أن لا امتع نفسي بهذه العروض المدهشة .

كان دافع مهمتي تقديم تقرير عن مسائل الثقافة . وكرفيق من المركز أُستقبلت في القسم المحلي لمفوضية الثقافة . وفي اليوم الثاني بوشر بتوزيع الاعلانات اللازمة لذلك . لكنني وبعد وصولي مباشرة شعرت أن مهمتي هذه اتت لتكون خدمة شخصية لي ابتاع خلالها ما يلزمني من مواد تموينية وقد قمت فعلاً بالخطوات اللازمة لذلك دون اي تردد . وكان أثر توقيع غوركي على مهمتي كبيراً جداً في لجنة مفوضية التموين . حيث استقبلت استقبالاً حاراً مؤثراً

وأصبحت في وضع أحسد عليه ولم يكن لدي الشجاعة الكافية لرفض الربح الناتج عن سوء الفهم هذا . وهنا مرة أخرى اثبت شعار هيغل قيمته في الحياة . . . .«ضعوا للرفيق غوركي بودين من طحين القمح» ، «جهزوا سريعاً عشرين رطلاً من لحم الخنازير المقدد» وغيرها . ومرت ثلاثة ايام ولم اقدم تقريري . غير اني حصلت على كمية لابأس بها من المواد الغذائية ورسالة جماعية لغوركي «(الحبيب) على الرغم من انه قد يكونوا لم يقرأوه ابداً» . وشعرت بعدها أن كل ساعة سأقضيها في هذه المدينة الساحرة ستكون مهلكة لمشروعي العفوي . وفوراً ودون أن أنظر يميناً أو يساراً جمعت حقائبي وتوجهت الى محطة القطار . وفور إظهاري التفويض الرائع سمحوا لي بدخول القطار . والذي حدث أن هذا الرفيق لم يقدم تقريره ، الذي ذهب من أجله . واثناء الطريق نَظَروا إليَّ وهم يفتشون نظرات غريبة متشككة إلا أن توقيع غوركي كان ينقذني في كل مرة .

فور وصولي الى بتربورغ سلمت غوركي الرسالة الجماعية ومعها بعض من المعلبات الغالية الثمن والنادرة وقصصت له تلك الاوديسا الغريبة التي شاهدتها . وضحكنا كثيراً على ذلك .

بعد اربع سنوات ، أمضيت عدة ايام عند غوركي في سورنتو . كانت فيلته البيضاء تقف على حافة انحدار نحو البحر ، الذي كان لازوردياً نقياً وشفافاً ، أما نسيمه اللازوردي فكان طيباً لدرجة أنك لا تكتفي باستنشاقه ، بل تحذوك رغبة لشربه ومضغه وعلكه . كان غوركي عادة يرتدي قميصاً ازرق بقبة مفتوحة ، وسروالاً ابيضاً وصندلاً على اقدام حافية . وكان كما في الماضي مرحاً دائم المزاح وقريباً من القلب .كنا نتسكع سوية في الحديقة ، ونجلس على تلك الأرائك القابلة للطي ونتحدث عن بيرانديلو والاشرعة البيضاء اللائحة في الافق ، عن الفولقا ومايكل أنجلو .

قال غوركي مرة عن الفاشيست ذوي القمصان السوداء :

ـ هؤلاء ذوو القمصان السوداء ، هم الوحيدون بين الخليفة البشرية ،

الذين لم استطع أن أحبهم .

كنا نصعد ليلاً الى سطح الفيلا المستوي وكان غوركي يقول ونحن نراقب تلك النجوم الجنوبية الضخمة :

ـ الامسيات هنا عذبة ، رائعة ومجنحة . النجوم ـ نقاط هداية ، من خلالها يمكنك رؤية كل شيء . إنك لم تجد مثيلاً لهذه الخارطة السماوية الواضحة .

انظر خلف تلك الارض الدائرية ـ تجد أمريكا ، وهنالك ، خلف تلك البوتقة ، «الدب الكبير» ـ تجد بلدنا روسيا ، موسكو . وهذا شيء عملي : اقتصاد ضخم للمتجولين . راقبوا النجوم : وهكذا يمكننا أن نتجول حتى الصباح . . . فجأة غير غوركي موضوع الحديث ضاحكاً وقال :

ـ حدثني من فضلك ، هل بقي أي شيء من صيدكم السمكي السابق الرائع ؟

★ ★ ★

على الرغم من أن ابداع غوركي كان واقعياً ، إلا أنه كان يمتاز بواقعية فردية . كان غوركي يتابع باهتمام وعمق رغبة الانحرافات الشكلانية عند الأجيال الفتية . في فصل من كتابي ، المتعلق بماياكوفسكي ، تحدثت عن الكيفية التي قام بها غوركي بدعمه في احدى الأمسيات الادبية عن «الكلب المتجول» وعن الدور ، الذي لعبه هذا الدعم في رفع سمعة ماياكوفسكي الادبية مستقبلاً .

عاش غوركي حياة غير مستقرة ، صعبة ومتوترة . كذلك كان أدبه . فهو الذي ألف كتاب «الطفولة» الذي كان تحفة حقيقية ، وهو مؤلف الكتاب المتواضع «طائر النوء» .

إن الذي كان يدهشني دائماً أنه بغض النظر عن خلجات روحه القوية الاضطراب ، كان خطه مستوياً واضحاً انيقاً وقريباً من الطباعي . وعندما حدثته عن ذلك قال : ينبع هذا من احترامي للناس ، الذين يقرؤوني .

مكسيم غوركي وفلاديسلاف خوداسيفيتس

يعتبر مكسيم غوركي (1868 ـ 1936) من كلاسيكيي الأدب السوفييتي ومؤسساً لمذهب الواقعية الاشتراكية في الأدب ، الذي هو «إعادة صياغة العالم من واقع الناس المعاش» على حد تعبيره .

إن حياة مكسيم غوركي الإبداعية ، مدهشة جداً : إذ بعد سبع سنوات من ظهور أول أقصوصة له في صحيفة ريفية ، عمت شهرته عموم روسيا ، وسرعان ما ذاع صيته في العالم أجمع . أما مسرحيته «في الحضيض» ، الكتي كتبها عام 1902 ، فقد عرضت عام 1903 في برلين . ومنذ الثلاثينات حتى هذا اليوم ، لا تزال تعرض مسرحياته «ايقر بوليتشيف وآخرون» ، «فاسيا جيليزنوف» ، «الممجيون» و «البرجوازي الصغير» ورواياته «الأم» و «حياة كليم سامقين» على شاشات سينما ومسارح الاتحاد السوفييتي والبلدان الأجنبية .

لقد كُتِبَ عن غوركي الكثير ، لكن ما كتب لا يكفي لتسليط أضواء كافية على جوانب حياته المختلفة .

نشرت مجلتنا* قبل عام تقريباً ، ذكريات عنه كتبها الكاتب كورني تسوكوفسكي . إلا أنه ظهر أخيراً في مجلة «النذير الموسكوفية» مقالة عن غوركي

★ المقصود هنا مجلة سبوتنك السوفييتية ـ المترجم

كتبها فلاديسلاف خوداسيفيتش[1] صديق غوركي لفترة من الزمن تجاوزت السبع سنوات ، والتي عاش قسماً منها تحت سقف واحد معه .

وبغض النظر عن الجدلية في بعض الصور والتقديرات ، التي وردت فيها ، رأينا فيها ما يثير الاهتمام من وجهة نظر المذكرات الشخصية ، التي جعلتنا نقدمها لقارئنا العزيز .

★★★

جرى الزمن الأكبر من معاشرني لغوركي في جو ريفي ، الذي لا تضطر فيه المناقب الطبيعية للإنسان إلى التقيد بروتين حياة المدن ، ولهذا فإنني في البداية أريد التطرق إلى المظاهر الخارجية لحياته وإلى عاداته وممارساته اليومية .

يبدأ يوم غوركي باكراً : يستيقظ في الثامنة صباحاً ، وبعد تناول القهوة الصباحية ، يشرق بيضتين نيئتين ويباشر بعد ذلك عملاً متواصلاً حتى الواحدة ظهراً . في الواحدة يجلس خلف طاولة الطعام ليتناول غداءه ، الذي كان عادة يطول بسبب المناقشات ، التي كانت تدور حول المائدة حتى الثانية والنصف ظهراً . وبعدها كانت تجري هنالك محاولات عديدة لاقناعه بضرورة الخروج للنزهة ، وكان كل مرة يحاول جاهداً التملص منها . وإذا خرج للتنزه فإنه يعود مباشرة إلى طاولة الكتابة ليستمر بالجلوس خلفها حتى السابعة مساء .

كانت طاولته كبيرة وواسعة ، وعلى الدوام تتموضع عليها أدوات الكتابة بترتيب ملفت للنظر . كان مكسيم يهيم بالورق ، ذي النوعية الجيدة ، وبالأقلام المختلفة الألوان ، والريش ، والأقلام الناشفة الجيدة والجديدة ـ ولم يكن يستخدم قط أقلام الحبر . إلى جانب ذلك كانت تنتشر لفافات تبغه ومجموعة مبرقشة من مباسم السجائر ـ حمراء ، صفراء وخضراء . كان مكسيم مولعاً

---

1) فلاديسلاف خوداسيفيتش (1886 ـ 1939) ـ شاعر ، مترجم ، ناقد أدبي ومؤلف العديد من الكتب والمقالات عن بوشكين وغيره من الشعراء الروس . هاجر من روسيا عام 1922 ، على أمل عودة سريعة . توفي ودفن في باريس ـ المحرر .

بالتدخين . أما الساعات ، التي كانت تفصل بين النزهة والعشاء ، فكان يقضي أغلبها في قراءة الصحف والمخطوطات المختلفة ، التي كانت ترسل إليه بكميات كبيرة . كان غوركي يجيب بسرعة على جميع الرسائل ، التي ترسل إليه ، ما عدا تلك التي لم تكن تستحق الرد وكان يقرأ جميع المخطوطات والكتب ، حتى عديدة الأجزاء منها ويدون آراءه فيها . وكان يعبر عن هذه الحقيقة في ردوده ، التي يرسلها لمؤلفيها . أما بشأن المخطوطات ، المكتوبة بخط اليد ، فلم يكن يكتفي بتدوين ملاحظاته فقط ، وإنما كان يقوم بتصحيحها بقلم خشبي أحمر ، وغالباً ما كان يعيد وضع علامات الترقيم في مواضعها الصحيحة أو يدرج التي لم توضع منها .

تعامل غوركي على مثل هذا النحو حتى مع الكتب : إذ كان يقوم بتصحيح أخطاءها المطبعية . حتى أنه مرة ـ تصرف على هذا النحو مع الصحف ، بالرغم من أنه كان بعد ذلك يقوم باتلافها .

في السابعة يتناول عشاءه ويشرب الشاي ويبدأ حديثاً عاماً ، كان ينتهي أحياناً كثيرة بممارسة اللعب بالورق : إما لعبة الـ«501» (حيث لم يكن يقبل لعبها دون رهان ، لكنه لم يحدث ولو مرة أن نفذه) أو لعبة البريدج . وفي نهاية كل سجال ورقي ، يحدث أن يرمي الجميع الورق ، لأن غوركي لم يكن يعطي الاهتمام المناسبة للعبة : إذ كان لا يستطيع تركيز ذاكرته على هذا النوع من الممارسات وكانت عدم إجادته أصول هذه اللعبة تثير أحياناً الضحك عند اللاعبين ، الأمر الذي كان يزعجه أحياناً . كما أنه كان يغضب حينما يخسر ، ويمكنك تصور حالته عندما تعلم بأنه كان دائماً في عداد الخاسرين .

كان غوركي يفضل لعبة البريدج على لعبة الـ«501» . أما بقية اللاعبين فكانوا بعكسه ، الأمر الذي كان يجعلهم يتذرعون بمختلف الأسباب لتفادي ذلك .

وما أن يقترب الليل من منتصفه ، حتى تجده مغادراً ، إما ليكتب أو ليقرأ مضطجعاً على الفراش ، الذي كان دائماً بسيطاً وأنيقاً كأسرة المشافي . كانت

ساعات نومه قليلة ، أما ساعات عمله فكانت تصل إلى العشر على الأقل . ولم يكن يحب الكسل والكسالى .

قرأ غوركي في حياته أعداداً ضخمة من الكتب ، وتذكر كل ما كتب فيها . أما ذاكرته فكانت خارقة حقاً . إذ كان يدهشنا دائماً أثناء مناقشة مختلف أنواع المسائل ، بما يقدمه من احصائيات وحجج دامغة . وحينما تسأله ، كيف تسنى له الحصول على مثل هذه المعلومات ، كان يهز كتفيه متعجباً ويقول : ـ حسن ، كيف يمكن أن لا أعرف ، إغفروا لي ؟ ويستطرد قائلاً : (على سبيل المثال ، ورد عن هذا الموضوع في مقالة «نذير أوروبا» في عام 1877 في الكتاب الدوري عن شهر اوكتوبر) . أي كان يعود بنا إلى المرجع .

كان شديد الثقة بالمقالات العلمية ، أما بالنسبة لأدب النثر فكان يظهر شكاً وريبة ، إذ كان يعتقد أن كتاب النثر يقومون بتشويه الواقع في أكثر أعمالهم .

عندما كان غوركي يقرأ الأدب ، كان يبحث عن دليل حول المسائل المعاشة وكانت أساريره تنفرج عندما كان يجد انحرافاً عن الحقائق المعاشة العادية ، الأمر الذي كان يؤكد وجة نظره حول ذلك .

مرة وفور تسلمه رواية ناجيفين ، التي كتبت عن راسبوتين بأجزاء ثلاثة ، تسلح بقلم رصاص وباشر قراءتها . مازحته حول ذلك قليلاً ، لكنه استمر في هذا العمل أكثر من ثلاثة أيام ، معلناً في النهاية ، إنها رواية رديئة جداً . لماذا ؟ تبين أن السبب يكمن ، في عدم مطابقة أحداث الرواية مع الواقع الفعلي ، فعلى سبيل المثال ، كان أبطال رواية ناجيفين ، القاطنون في مدينة نوفقورد الأدنى ، يتوجهون إلى المركب لتناول طعام الغداء ، الذي كان لتوه قد وصل من استراخان . في البداية لم أفهم سبب اندهاشه ، وقلت بأنه تسنى لي شخصياً تناول طعام الغداء على مراكب الفولقا ، الراسية في مرافىء النهر . صرخ مكسيم قائلاً على الأثر ـ نعم ، يحدث هذا قبل الرحلة وليس بعدها ! فبعد الرحلة لا يستقبل المطعم زبائنه ، يجب معرفة مثل هذه الأمور !

فيما بعد دار حديث في المجتمع الروسي خلال ثلاثين عاماً ، وكان هذا الحديث حول حياة مكسيم غوركي ، التي زعم أنها حياة لاهية فاسقة . إنني لا أستطيع التحدث عن ذلك الزمن ، الذي لم أكن أعرفه فيه ، لكنني أستطيع أن أصرح وبقوة ، أن غوركي وخلال سنوات عشرتنا ، لم يعش بأية براهج ، ولم يكن من الممكن أن يدور الحديث عن مثل هذا . وكل ما ورد من حديث عن فيلات وقصور لغوركي ، ليس إلا كذب صارخ وهذا يثير لدي الضحك ، وأعتقد أنه نابع من حسد الأدباء له[2] ، مغموس بكراهية سياسية . والبرجوازي الصغير لم يكن ، يصدق مثل هذا الهراء فحسب بل كان يتابعه ويقصد تكراره دائماً .

اتصف غوركي بحيوية مدهشة ، وكأني بها كانت معجونة بجسمه ومعشعشة في ثنايا روحه .

يعتبر الحديث عن حياة مترفة لغوركي شيئاً معيباً ومهيناً أيضاً . لقد اعتاد أولئك المزاجيون ، العودة إلى مثل هذه الأحاديث ، في كل مرة كان فيها غوركي يجذب الناس للحديث عنه أو للاهتمام بأعماله .

تطرقت بين عامي 1927 ـ 1928 ، بالحديث عدة مرات إلى آ . آ . يابلونوفسكي ، معبراً له عن عدم الحاجة للحديث عن الفيلا الأنيقة ، الواقعة في كابير[3] ، لأن غوركي ومنذ خمسة عشر عاماً يعيش باستمرار في سورنتو ، ولم تطأ قدمه ولا مرة واحد كابير ، وكان أن أشترط عليه حينما حصل على فيزا الدخول إلى ايطاليا عدم التوجه إلى كابير . استمع يابلونوفسكي إلى ذلك هازاً رأسه . إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى عاد للحديث عن ما كان يتحدث به سابقاً حول غوركي ، لأنه لم يستطع التخلي عن عادات البرجوزاية الصغيرة الدنيئة .

---

2) من الأدب ـ المترجم .

3) مدينة في ايطاليا ـ المترجم .

وفي السنوات اللاحقة ، كفوا عن الحديث عن ما سمي بفيلا كابير ، وأصبح الحديث يدور عن فيلا سورنتو ، وكانوا يصفون حياة غوركي فيها بأنها أصبحت أكثر رفاهاً وبهرجة مما كانت عليه في الأول . . والآن أريد أن أصفي الحساب أمام البشرية : لقد تم استئجار هذه الفيلا المزعومة ليس فقط بحضوري بل حتى بشهادتي .

قطن غوركي بعد وصوله إلى سورنتو في ربيع عام 1924 في فيلا كبيرة ، لكنها كانت قديمة وغير مريحة وعاش فيها حتى كانون الأول من نفس العام ، وغادرها بسبب رغبة أصحابها في إعادة ترميمها . لحقت بغوركي وكان لا يزال يقطن هذه الفيلا . وعندما اقترب موعد تسليمها ، بدأنا نبحث عن نزل جديد . وبما أن الشتاء عادة يكون بارداً في سورنتو ، فقد فكرنا بالإنتقال إلى الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة ، بالقرب من آمالف . فوجدنا هناك فيلا وحيدة ، وحدث أن استأجرناها . أراد مكسيم (ابن غوركي من زوجته الأولى) الذهاب لتفحص هذه الفيلا ثانية . وذهبت معه بسبب من قلة الأشغال . وتبين لنا أن الفيلا مبنية على رأس ناتىء من شبه الجزيرة ، ويقع تحت طرفها الجنوبي انهدام عمودي ينتهي إلى البحر . أما الواجهة الشمالية فكان يفصلها عن خط الماء البحري طريق ضيق متعرج ، ينتهي بصخرة بحرية كبيرة ، تتفتت باستمرار من تأثير البحر كشاطىء آمالف كله . انتصبت هذه الفيلا ، التي تسنى لنا العيش فيها سبعة أشهر أخرى ، على الطرف الغربي من قرية صغيرة ، كان قد أكلها البحر . أتذكر ذلك جيداً ، لأنني أثناء حدوث ذلك كنت في روما . إذ مات على إثر هذه الحادثة مائة إنسان . وبدأ المنقبون يبحثون عن المفقودين طويلاً ، ونظراً لفداحة الكارثة فقد أشرف الملك شخصياً على ذلك . أما هذه الفيلا فبقيت وحيدة تحمل مصيرها وتقف على هذا الانحدار المتشكل إثر الكارثة ، وظهر على وجهها الشرقي أشجار متصدعة وأعمدة حديد زال عنها الاسمنت . وأتذكر أنه وبعد هذا المشهد صرخت بمكسيم قائلاً : ـ إن حياتي ليست بالبخسة إلى تلك الدرجة ، التي

اسمح فيها لنفسي بالعيش في مثل هذه الفيلا . أجاب مكسيم ببرود ـ لا يوجد فيلات أخرى غيرها .

وبهذا لم يتبق لنا خيار ـ وكان أن قمنا باستئجار هذه الفيلا «Il . Sorito» ، التي حكم عليها أن تكون الملجأ الأخير لغوركي في ايطاليا . لم تقع هذه الفيلا في سورنتو بالذات ، بل كانت تبعد عنها حوالي الكيلومتر والنصف ، وعلى رأسها البحري . وقد تميزت بالموقع الجميل المشرف على كامل الخليج وعلى نابولي ، فيزوفي ، كاستيلامير ، أما من الداخل فقد تميزت بعيوب عديدة : منها قلة المفروشات وبرودتها الحادة . وصلناها للسكن في 16 تشرين الثاني ، وكدنا نتجمد فيها قبل انقضاء الشتاء ، إذ كنا نستدفىء بمدفأة حطب جدارية صغيرة الحجم «شومونيه» ، مستخدمين كوقود أغصان أشجار من النوع الرديء . أما ما أغرانا فيها فهو بدل أجارها الرخيص ، حيث كنا ندفع 600 لير في السنة ، أي ما يعادل 1000 فرنك فرنسي في ذلك الوقت .

ضم الطابق العلوي ، غرفة الطعام ، غرفة غوركي (النوم والمكتب سوية) ، غرفة السكرتيرة إم . اي . يودبيرغ ، غرفة إن . إن . بيربيرافا ، غرفتي وغرفة أخرى صغيرة خصصت للضيوف . أما في الأسفل فكان هنالك صالة صغيرة وغرفة أخرى شغلها إي . إن . راكيتسكي ، الرسام ، وكان إنساناً مريضاً ، طيب القلب وغريب الأطوار : كان يحضر في عام 1918 ، أثناء خدمته العسكرية إلى بيت غوركي ليستدفىء بسبب مرضه ، وحدث لاحقاً أن قطن هذا البيت لسنوات عديدة . أما الغرفة المتبقية فكان يقطنها مكسيم (ابن غوركي) مع زوجته . وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يجب أن نضيف إلى هذا الطاقم إحدى قريباتي ، التي كانت تسكن في سورنتو ، وبعدها ومن زمن لآخر كانت تزورنا قادمة من روما وهي ي . ب . بيشكوف ، زوجه غوركي الأولى ، التي وصلت من موسكو قبل اسبوعين من ذلك . وأحياناً كنا نُزار من قبل ضيوف ، يعيشون في فندق «مينيرفا» . .

ومع كل ، الذي قصصته ، أصبحت أسمع بعد وصولي إلى باريس شائعات تقول أن غوركي لا يزال يعيش في كابير ويقضي بعض أوقاته في حفلات تنكرية .

في 13 تموز عام 1924 كتب لي غوركي رسالة من سورنتو ، جاء فيها : «أعلمكم ، عن ابتداء موسم الأعياد لدينا ، وكل يوم تقريباً تقام الحفلات ، وتصدح الموسيقى وتقام عروض للفن الشعبي . وكل هذا يقودنا نحو البكاء ، والموت ، والمرض والقرف وغيره ، ولا أعلم إلى ماذا المنتهى !» .

لم يغرم غوركي قط بأجواء الاحتفالات الموسيقية وخاصة عندما كان يتخللها رفع الأعلام وإظهار النزعات القومية الايطالية . وكثيراً ما كان يخرج مساء إلى الشرفة داعياً الجميع لمشاهدة إطلاق الصواريخ الاحتفالية وأنوار الشموع الرومانية . وكان غالباً يقول مضطرباً :

ـ هذا في تور انوتسيات ! وذاك من ميركولامون ! والآخر في نابولي ! آه ، آه ، آه ، كيف تشتعل ، ومتى ستنتهي .

لم يعجب هذا «الواقعي العظيم» إلا بتلك الأعمال التي تصف الواقع وتعيش فيه ، أما تلك التي لا تأخذه بعين الإعتبار أو تبتعد عنه أو تحاول تجميله بشيء ليس منه ، فكان لا يرتاح لها بتاتاً . قابلت العديد من الكتاب ، الذين كانوا يفتخرون بأن غوركي كان يبكي وهو يستمع إلى مؤلفاتهم . ليس هذا مجالاً للافتخار ، لأنني لا أتذكر غوركي ولو مرة واحدة أنه لم يبك في أي مرة انفعل فيها ، وطبعاً لم يكن ينفعل للأمور أو للأخبار السخيفة .

على الرغم من أنه كان يقع فريسة لحالات ندب وبكاء ، إلا أنه كان على الدوام ينتقد ذلك . ومع ذلك بقيت الدموع ردة فعله الأولى .

لم تكن تصعقه نوعية النص ، الذي يقرأه ، بل ما صعقه افتقاره للإبداع ، أو كتابة من بنات الخيال . وقد تصرف ماياكوفسكي ، بتصريحه أنه مستعد لبيع صدريته بثمن بخس ، لأن مكسيم غوركي كان قد ندبها ، تصرفاً غير لائق بمثل هذا التهكم على خلجات روح غوركي النقية والشريفة . ولم يكن

غوركي يخجل حتى من البكاء على كتاباته الخاصة : إذ كان كلما يصل لقراءة النصف الثاني من كل أقصوصة له ، يتلوها والدموع تنساب مدرارة من تحت نظارتيه .

أحب غوركي الكتاب الشباب المبتدئين : إذ كان معجباً بآمالهم المستقبلية وحلمهم بمجد واعد . حتى أنه لم يكن ليحد من طموحات اولئك الرديئين منهم . واعتبر أن مثل هذه المحاولات ، سلوك أخرق وغير لائق . وأن التوجه في التعامل مع الكاتب المبتدىء (مرة أخرى حتى مع اولئك الأقل أهمية) يجب أن ينطلق من احترام حلمه الخاص ، وبهذا كان غوركي يشعر بالسعادة ، على الرغم من قناعته بأنه بذلك يخدع نفسه وصاحبه أيضاً . والمدهش في الأمر ، أنه كان يعامل الكتاب ، الذين كانوا قد وقفوا على أقدامهم معاملة أخرى . حقاً كان يحترم المبرزين منهم ، على سبيل المثال بونين (الذي فهمه) وبلوك الذي أجبر نفسه على حبه (حيث لم يكن يفهمه حقيقة ، لكنه كان يتحسس أهميته) . إلا أن قلبه لم يمل إلى اولئك المؤلفين ، الذين كانوا قد خرجوا لتوهم من تحت دائرة الظل ، ولم يلحقوا مصاف الريادة . وتبين أن سبب انزعاجه منهم يكمن في الحالة ، التي سقطوا فيها وهي هيمنة الأحلام عليهم في أن يصبحوا رواداً . وأنهم بدأوا يسدون أهمية كبيرة للمبارزة ، ولإظهار أهمية أشخاصهم ، (تارة ـ بشر ، وتارة ـ شخصيات) ـ كما قال الكهل لوكا[4] ، في هذه المعادلة غير الواضحة والتي لا تعبر عن دقة الفكرة ، التي أراد أن يقولها المؤلف . والأمر الذي كان يغيظه ، أكثر من كل شيء ، هو إصرارهم على طباعة الأحرف المؤلفة لأسماء هذه «الشخصيات ؟» طباعة واضحة ومميزة . أما «الشخصيات» الحقيقية ، أي تلك المعبرة عن أبطال ، مبدعين ، محركين لعجلة التقدم المحبوب فقد كان يبجلها غوركي أشد التبجيل . أما اولئك الأفراد ، الأرقام ، الذين لم تكن سماتهم تنم عن شيء جوهري ، وذوو السير الوضيعة ، فكان يمقتهم وكثيراً ما سماهم «البرجوازيين

4) بطل مسرحية غوركي «في الحضيض» ـ المحرر .

الصغار» . إلا أنه كان يعترف بوجود بعض من السعي عندهم ليصبحوا في حالة أفضل هي المحافظة على النفس : «تشدو الأرواح لدى جميع الناس ، وجميعها تحمل رغبات وردية» . لقد تعامل غوركي مع مثل هذه الرغبات بشعور قلبي صادق واعتبر أن واجبه لا ينحصر في مساندة التصور الأنيف عند الناس عن شخصياتهم ، بل كذلك في خلقها لديهم أو تلقينهم كيف يصنعون ذلك بقدر الإمكان . وأظن أنه وعلى الأغلب ، كان يعتقد أنه يمكن لمثل هذا الخداع الظاهري الذاتي أن يخدم كدافع أولي لإبعاد بلاهة البرجوازية الصغيرة . لهذا كانت تشحذه رغبة بأن يصبح مرآة ، يجد فيها كل شخص نفسه أنفاً ، خيراً ، ذكياً وعبقرياً أكثر مما هو عليه الحال في الواقع . وكان يظن أنه كلما ازداد الفرق بين الانعكاس والواقع عند مثل هؤلاء الناس ، كلما أصبحوّا أكثر اقراراً بذلك ، وفي هذا بالذات انحصرت دوافعه وثقته الزائدة في انتهاج مثل هذا الطريق .

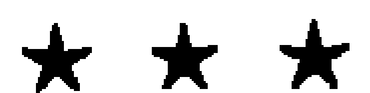
لم يكن غوركي خالياً من التناقضات . فقد كانت هنالك بعض الفروقات بين طباعه الحقيقة وواقعه (أي ما إنعكس عن المرآة) . وهنا وإنصافاً للحقيقة ، يجب الإشارة إلى أن غوركي في مثل هذه الحالات لم يسع من أجل خيره الخاص ، بقدر ما كان يسعى لخير الآخرين بالمعنى الاجتماعي العام .

روى غوركي مرة ، كيف زاره في بداية القرن العشرين ، أي في بداية عصر مجده ، أحد الناشرين المدينيين الصغار الذي كان ينشر سلسلة ما سمي آنذاك بـ «كتب للشعب» ، وهي عبارة عن حكايات ، مذكرات ، أغانٍ وغيرها - وحاول اقناعه - بكتابة سيرة شعبية بأسلوب تكون فيه قابلة للتصريف التجاري ، الأمر الذي سيدر عليه ربحاً جزيلاً . وذكر أن مما قاله هذا الناشر : «حياتكم يا مكسيم - انها عبارة عن نقود صافية» . قص غوركي ما سبق ذكره بسخرية واضحة . بهذا السياق ، وإن لم تكن سيرة غوركي آنذاك كذلك فإنها لاحقاً ، أخذت طابعاً شعبياً أو قريباً منه ، إنه (غوركي - العصامي) ، (غوركي - طائر النَّوْء) ، (غوركي - المعذب) وغوركي - المناضل العنيد في صف البروليتاريا ، وهذه جميعها خصال عرفتها عنه كل شرائح مجتمعنا التقدمية .

لا يجوز بأي حال من الأحوال ، الوقوف ضد الرأي القائل بأن هذه الخصال البطولية انعكست وبشكل واضح في حياة غوركي الحقيقية . نعم لم تكن بالخصال والصفات الخارقة ، بل نبعت وتشكلت خلال مصيره وواقعه . ولا ينقص من الحقيقة شيء ، إذا لم يعبر عنها من خلال تلك السير الرسمية الصادرة عنه . فهم غوركي هذا الشيء جيداً ، إلا أنه وبسبب واقعه والضغوطات التي تعرض لها ، وأخيراً مجده ، الذي حصل عليه بالرغم من ذلك ، حاول استيعاب هذا الواقع مرة وإلى الأبد ، وزاوج بين الحقيقة ووجهة النظر الرسمية ، لكنه لم يجعلها قط تستعبده . إذ كان يرى أن واجبه الرئيس هو الوقوف أمام البشرية أمام «الجماهير» في حالة ، تجعله يقدم ما كانت تتأمله منه الجماهير دون خداع أو مواربة ، وأن يبادلها حبها بحب أكبر . وغالباً ما تسنى له استشعار أمزجة الجماهير ، في تلك اللحظات التي كانت فيها تبتعد عن احلامه الذهبية ، بشكل كامن أو صريح .

اتصف مكسيم غوركي ببعض طباع حادة ، كانت وراء ذلك الظل ، الذي أسدي على شخصيته . إلا أنني لا أستطيع أن أؤكد أنه كان يحب مثل هذا الطبع أو كان راضياً عنه . وعلى أية حال ، هنالك الكثيرون ، الذين يقولون بأنه كان يعاني من ذلك . أما أنا باعتباري شاهداً أستطيع أن أقول بهذا الخصوص ، أنه وفي العديد من المرات وعندما كان يرتكب خطيئة ما تتعارض مع دوافع روحه أو مع أخلاقيته ، أو على العكس عندما كان لا يقدم على فعل مقتنع به ويعبر عن ضميره ، كان يعبر عن ذلك بألم واضح هازاً كتفيه ويقول منزعجاً :

«لا يجوز الإساءة إلى سيرة الحياة» أو «ما الذي ستفلعه ، ما حدث فات وسوف يؤثر ذلك على سيرتك» .



بين عامل الورشة المديني بيشكوف ، الذي اعتاد على النقود النحاسية إلى مكسيم غوركي ، ذي الشهرة العالمية ـ بون شاسع ، يتحدث عن نفسه بأي شكل أو طريقة قدرت بها موهبة غوركي . وكأن ذلك الوعي ، الذي تشكل

عنده عن شخصيته السابقة ، يجب أن يترك بعض الرواسب في صاحبه . ومع ذلك أعود لنفسي وأقول ، أنني لا أقر كلياً ذلك . وهو لم يسع حثيثاً وراء المجد ، ولم يخجل أبداً من المحافظة على طبعه ذاك ، ولم يخش النقد ، كما أنه لم يطرب ولم يفرح من المدائح ، التي كانت تسدى إليه من شخص غبي ، ولم يسع أيضاً لإيجاد مبررات أو دوافع لتنمية شهرته ، وأظن أن السبب في ذلك ، هو أن شهرته كانت حقيقية وليست مصطنعة كما أنه لم يعان من الغرور ، ولم يراهن على الشهرة كطفل مدلل .

لم أر شخصاً كغوركي ، وصل إلى المجد ، الذي هو عليه بعمله ومقدرته .

كان غوركي شديد التواضع ـ حتى في تلك الحالات ، التي يكون فيها راضياً عن نفسه . كما أن هذا التواضع لم يكن مصطنعاً أبداً . وتولد هذا عنده من احترامه وتبجيله للأدب والإبداع ، وقبل كل شيء من إصراره المستمر على طلب المزيد من نفسه .

مرة وإلى الأبد ، استوعب المفاهيم الجمالية الأولية (حتى منذ السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي) ، ولم يكن هنالك أي تناقض صارخ في أعماله بين الشكل والمضمون . إذ كان المضمون فيها يرتكز على اعتماده في إبداعه على واقع المجتمع ، والواقع المعاش . أما في مجال الشكل فكان يشعر على الدوام بأنه ضعيف لديه . وبمقارنة نفسه مع المشهورين (كديستوفسكي وغوغول) وجد عندهم الحدة ، التعقيد ، الظرافة ، الدقة ، ومع أنه لم يتصف بهذه الصفات فإنه لم يعترف بهذا أبداً .

كنت قد تحدثت ، عن أنه كان يقص لي أقصوصاته بصوت مسموع ومن خلال الدموع . وبعد أن أصبح الخوف يبتعد عنه ، أخذ يطالب بالنقد ، وكان يستمع إليه شاكراً أصحابه ، ولم يكن يعطي اهتماماً إلا للمثالب ، تاركاً الإطراء جانباً . ونادراً ما كان يدافع عن إبداعه أو يجادل في النقد الموجه إليه . وبعد كل جلسة نقد ، كان سرعان ما يعود إلى نفسه لتصحيح الأخطاء التي اقتنع بها .

فعلى سبيل المثال ، استطعت في إحدى المرات اقناعه بضرورة إعادة كتابه «حكاية عن الصراصير» ، وما كان منه إلا أن عاد وأدخل عليها التعديلات . كما أنه قام مرة بإعادة كتابة الجزء الأخير من «قضية ارتامونوف» ، بعد نقد وجه إليه .

وأخيراً ، أقول أنه عانى طويلاً من ما اعتبره مثلباً وهو عدم مقدرته صناعة الشعر .

- قل لي ، من فضلك ، أحقاً أن اشعاري رديئة جداً ؟

- رديئة ؟ ما هذا يا مكسيم .

- حاولت على امتداد حياتي أن أصنع ولو قصيدة واحدة جميلة ، لكن ويا للأسف ،لم أستطع صُنع ذلك .

نطق هذا ، ناظراً إلى الأعلى بحزن عميق وعيونه دامعة ، وسرعان ما أخرج منديله ليمسحها .

قدمت ، في إحدى المرات ، مذكراتي عن الشاعر فاليري بروسوف لغوركي كي قرأها ويعطي فيها رأياً . وعندما انتهى من قراءتها ، قال بعد فترة صمت :

- كتبت بقساوة ، لكن ما كتبته رائع . وعندما أصبح في عداد الموتى ، أكتب عني من فضلك .

- حسناً .

- لا تنسى !

- لن أنسى .

فلاديسلاف خوداسيفيتش

باريس 1936

تراجيديا غوركي

شكراً لمجلة «النقد الأدبي» ، التي نشرت «أفكار غير ملائمة» لغوركي ، لأنها قدمت لنا إمكانية التعرف على طبيعة الخلاف ، بين الكاتب ولينين والبلاشفة قبل وبعد ثورة أوكتوبر . ذلك الخلاف الذي وصل قمته عندما بدأ غوركي الدفاع عن الثوريين اليساريين .

أما لينين فكان قد نعت غوركي «في رسالته الى بوخارين ، المؤرخة في 7 أيلول عام 1922» بالدَنِسْ ، لكنه اتخذ موقفاً مضاداً لتلك النية المبيتة ، التي دعت الى «الهجوم على غوركي في الصحافة» .

شعر غوركي ، بالعزلة ، بعد مغادرته وطنه ، وعبر عن ذلك من خلال ، رسالته الى رولان ، المؤرخة في 7 كانون الأول عام 1922 قائلاً «يا صديقي العزيز ، كم هي الحياة صعبة . . ! إنها صعبة بشكل مضحك . وعلى الأخص في تلك الأمسيات ، عندما تمل من المطالعة ، ولا يجد النوم إليك طريقاً ، وهنالك على أرض الوطن تتحارب الزوابع ويتحارب الشيوعيون أما الأرض فتمتص الجليد ، والناس كثيرو الكلام ، إلا أن كلامهم رائع وأنه ـ كالثلج ليس لأنه غني ووفير ، بل لأنه قارص البرودة . فعندما يكون التعصب بارداً ، تكون برودته أصقع من الجليد» .

وحتى هنا ، رغم كل هذا التأنيب الموجه للمحاربين الشيوعيين «لتعصبهم» ، لم يخف غوركي اعجابه الحماسي بهم : «إنني مفتون بطاقات وإرادة

الزعماء الشيوعيين الروس . . ويحدوني هذا إلى أن أكون آسفاً لإختلافي معهم بالرأي في تحييد رجال الثقافة والأدب ، مع ذلك لم يكن بامكاني أن أقدم على ذلك أبداً» .

تقدم لنا هذه الرسالة ، التي وجهها غوركي الى رولان ، إحساساً أكبر ومعلومات أكثر من التي حصلنا عليها من أي مصدر آخر تحدث عن غوركي ، وعن حدة معاناته وتناقضه الروحي ، وكل ما عذبه في بداية العشرينيات . مع نفاذ صبره على «الغربة» عن الوطن ، والخشية على مصيره ، كانت تزداد عنده الرغبة في التشبث بتلك الأفكار ، التى أطلقها الى الأبد .

وفي رسالته الى رولان المؤرخة في 21 نيسان عام 1923 يكتب قائلاً : « . . . إنني لا أشعر بأية رغبة في الرجوع الى روسيا . إذ انني لا استطيع الكتابة ، إذا كنت مضطراً ، أو مرغماً على الدوام ، على فقدان كامل وقتي لكي اكرر وباستمرار عبارة (لا تقتل)» .

يعود غوركي الى هذا الموضوع الحاد الأهمية بالنسبة له في رسالة اخرى كان قد كتبها في 15 كانون الثاني عام 1924 قائلاً : « . . . لن أعود إلى روسيا ، إذ اصبحت اكثر قدرة مع الزمن على الشعور بانسانيتي بدون وطن ، ذلك الاحساس الذي يزداد باضطرادٍ عندي . لدرجة انني ابتعدت عن ذلك التفكير ، الذي كان يراودني ، بأنه تسنى لي في روسيا أن ألعب دوراً فظيعاً «مخيفاً» - دور عدو الجميع وعدو كل شيء ، إذ كنت بسبب عدم إحتراسي في إصدار الأقوال والأفكار وتنفيذ الأعمال ، كإنسان سخيف ، كان على الدوام يضرب رأسه بالحائط متوهماً تحطيمه . .

لم أع ذلك إلا في بداية عام 1918 عندما أصبحت على قناعة وايمانٍ بأمرٍ مفاده ، أنه لا أية سلطة أو شخص باستثناء لينين في روسيا يستطيع ، ايقاف نمو المنارخية المتصاعدة بين الفلاحين والجنود . وهذا لايعني على الاطلاق ، انني بدأت أتعاضد معه . وحقيقة الأمر ، هو أنني كنت على خلاف مستمر معه - . . وأشرت إلى أننا عندما نقدم على تحطيم الثقافة الروسية ، فإننا نقوم بتحطيم عقل

الشعب الروسي وذاكرته . وعلى الرغم من أنني أكن شعور صداقة للينين ، وأظن أنه كان يكن لي الشعور نفسه إلا أن خلافاتنا وَلدَّت لدى كل منا كراهية روحية باتجاه الطرف الآخر» .

كُتِبَتْ هذه الأفكار قبل اسبوع واحد فقط من موت لينين ، وغوركي ، الذي اعترف منذ زمن ليس بالبعيد «بالكراهية الروحية» للينين ، صُرِع كالرعد حينما سمع خبر وفاته . (على الرغم من ذلك الشرخ الكبير ، الذي حصل لعلاقة الكاتب مع لينين وروسيا الثورية) . وفاح حزن عميق من رسالته ، المرسلة الى رولان والمؤرخة في 3 آذار عام 1924 ، إذ جاء فيها : «نعم ؛ يا صديقي الصدوق ، كان موت لينين بالنسبة لي ـ ضربة قاسية جداً ، وإنني لا استطيع أن أتصور ذلك الأثر الفظيع الذي خلفته تلك الوفاة على روسيا ، إنها خسارة كبيرة لاتعوض . . أحببته ، نعم ، أحببته بغضب ، خاطبته بحدة ، وبدون رأفة . . أحببته بلطف وبعمق ، لأنه كان يكره المعاناة والظلم ودائماً يتغلب على الحقد ويستطيع تفهم الانسان بأعماقه .

كان إنساناً روسياً كبيراً . . تولستوي ولينين ـ اثنان من الروائع الكبيرة لدى الشعب الروسي . وأنا فخور لأنه تسنى لي مشاهدتهما» .

حَدَّد رومين رولان في كتابه «خمسة عشر عاماً من النضال» بدقة أهمية موت لينين كنقطة تحول في طريق البحث الفكري عند غوركي . «لم يكن تشاؤم غوركي من علاقته بروسيا وأوروبا كاملاً أو لا رجعة فيه كما بان من خلال رسائله لعام 1923 . . . تلك الرسائل ، التي دار فيها الحديث عن لينين ، قبل وبعد وفاته ، وهي تعكس حدة عذاباته ومخاوفه فقط . وكما كتب أنه أحب لينين بحقد وبخشوع . كان على الدوام يتجادل مع لينين : لم يحب احدهما الآخر ولم يُركِنا الأسلحة جانباً . إلا أنه وبعد وفاة لينين ، قال غوركي كلمته الأخيرة ، التي اعترف فيها بأن لينين كان على حق» .

حصلت أفكار رولان هذه على المصداقية ، بفضل شهادة إن . إن بيربيريفا ، التي عرفت غوركي عن قرب أثناء مرحلة الهجرة والعيش خارج

الوطن . إذ جاء في كتابها «المرأة الحديدية» ما يلي : «لم يقض موت لينين مضاجع غوركي فقط ، بل أدى الى تبديل جذري في رأي غوركي به . . وكان أن غمره شعور كبير بالندم . . » وتقول متابعة : «وعلى ضوء موت لينين أعاد غوركي ، النظر بتقييمه وعلاقته بثورة أوكتوبر وبسنوات البلشفية الأولى ، وبدور لينين وأحقية موقفه وأخطائه الخاصة . إذ نسي تحت تأثير الصدمة جميع الخلافات والانزعاجات ودفع حساب ذلك ووقع تحت هيمنة الهالة العظيمة لإيليتيش : إذ بدأ يعتبر ومن كل قلبه ، أنه ترمل مع كل روسيا بل حتى مع كل العالم ، وكان يتحدث عنه والدموع تنهمر مدرارة من عينيه» .

اتخذ غوركي قرار العودة الى روسيا بعد تردد طويل ، لكنه بعد اتخاذه له ، لم يتراجع عنه . وقد عَبّر غوركي عن انزعاجه من تنامي القوى الرجعية وذلك في رسائله إلى رولان عام 1925 واصلاً الى نتيجة مفادها : «أيمكن أن تكون الثورة العالمية ، هي الوحيدة القادرة على شد تلك العقد المفككة جداً في علاقاتنا ؟ غير انه عندما يصبح طريق موسكو هو الحق ، فيجب السير معها دون تردد».

من الواضح أن غوركي لم يفكر بالثورة العالمية إلا بشكلها المبهم ، كتفكيره بحلم بعيد . ولهذا أصبح الاقتراب والتعاون مع موسكو بالنسبة له أكثر ضرورة من ذي قبل .

ويُظَن أحياناً أن هذا الشيء لا يستحق تلك الأهمية بحيث تفسر عودة غوركي إلى روسيا انطلاقاً من قناعات حياتية أو أنانية أو من حب الذات أو الحسد وغيرها . أما الأثر الحاسم لهذه العودة فيكمن في الطموحات الداخلية والايمان العميق والشوق الكبير للوطن والشعور بالواجب امامه وليس في نهاية المطاف الشعور بالواجب تجاه ذكرى لينين .

في الوهلة الأولى لعودته ، كان غوركي مهيئاً لشدو المدائح . إذ سَرَّهُ ما شاهد من وضع البلاد وتباين هذا الوضع مع نظيره في العشرينيات . مصانع جديدة ، مدن مشادة ، لقاءات حميمة بالقراء ، استقبالات صداقية ، السرعة التي نشرت فيها مقالاته ورسائله ، المكتوبة في تلك الأعوام وعودة المجد السابق

وانتشاره في كل الانحاء . كل هذا اثر بشكل سلبي على عودة وعيه وفهمه الصحيح للامور . الأمر الذي لم يأته بشكل مفاجىء ، بل جاء بالتدريج . ومن الصعوبة بمكان أن نحكم على هذا من خلال كتاباته . لأن ما كتبه في أعوام حياته الأخيرة لم يُكْشف كاملاً بعد . ونرى في هذا المجال أكثر من أي شيء «بقعاً بيضاء» وهنا يطرح سؤال : كيف كان المونولوج الداخلي لتطور أفكاره ؟

كما هو معروف ، أقدم غوركي في كتاباته على نقد ذاتي لمواقفه في السنين الأولى للثورة ، وكان صادقاً في ذلك .

لكن من جانب آخر ، وحينما نعيد النظر بالتقديرات والتنبؤات المتشائمة التي عبر عنها في «أفكار غير ملائمة» ، نرى أن غوركي أقدم على محو كل شيء قيم كان قد قاله بقناعة تامة وكل ما كتبه في تلك السنوات . وأصبح لاينقد العنف الثوري في بداياته الأولى ، ونسي ما صدر عنه من نداءات ،ـ في النضال الثوري ، يجب علينا أن لاننسى العام الانساني ، بل يجب الحفاظ على قواعد الاخلاق البسيطة والثقة المستمرة بها .

ترك جو القسوة والعنف المتشكل من قبل الطاقم الستاليني أثراً كبيراً على غوركي ، الذي أقدم في الأزمنة البيضاء على الدفاع عن الشخصيات الأدبية المشهورة وحمايتها من البطش والارهاب ، أما الآن فنجده يصادق على محاكمة شخصيات «الحزب الصناعي»(*) ، وهذا ما يتضح من خلال رسائله لرولان .

كذلك تحدث غوركي عن التعاونيات في مجالها الإيديولوجي فقط ، ولم يتطرق الى الطرق الهمجية في تطبيقها تلك الطرق التي تركت بصمات سوداء على

★ ـ الحزب الصناعي (اتحاد منظمات المهندسين) ـ تنظيم سري (1925 ـ 1930) ، انحصر نشاطه في مجالات الصناعة والنقل في الاتحاد السوفييتي . انضم إليه العديد من الشخصيات القيادية البرجوازية الغنية في الدولة . كان يعتمد على دعم من الخارج . جرت محاكمة شخصيات هذا الحزب في نهاية عام 1930 .ـ المصدر قاموس الموسوعة السوفييتية الكبرى ص 1068 ـ المترجم .

حياة ملايين الناس «نزع ملكيات الكولاك» . وعلى الأغلب لم يكن غوركي يعرف الكثير عن ذلك ، أو أنه حصل على معلومات غير صحيحة بهذا الصدد . إلا أنه بهذا الشكل أو ذاك ، كان قد خضع لهيمنة التمويه الاعلامي المطبق آنذاك . لماذا ؟ أظن أنه أقدم وبكامل وعيه على اغلاق عينيه وسد أذنيه لكي لا يرى ولا يسمع تلك الحقيقة المرة ، لأن مثل هذا كان سيعكر عليه هدوءه ؟

إلا أنه سرعان ما أقدم على تأنيب نفسه على ذلك الشعور الوهمي بالواجب ، الذي اكرهه على الصمت ، ذلك الصمت الذي عانى منه ، لمجرد عدم الحاق الضرر بالوطن .

عبر رومين رولان من خلال يومياته لعام 1933 عن شكوكه حول ذلك قائلاً : هل يسير كل شيء على ما يرام في الاتحاد السوفييتي ، كما يخبره صديقه الروسي ؟

«أحسست كأن غوركي راضٍ عن جو العمل والكدح هذا ، أما عن معاناة وآلام الناس فلم يصله شيء تقريباً» .

غير أنه وفي عام 1935 وبعد لقاء خاص لرولان بغوركي ، توصل الأول إلىٰ نتيجة مفادها ، أن غوركي يعرف الكثير ، ويعيش فيه حزن كبير وعميق .

قد يكون مفيداً الاستماع إلىٰ شهادة إي . إس . شكاب ، الصديق القديم لغوركي وزميله ، من خلال مؤتمر صحفي لعام خلى إذ قال : «يجب الكشف عن تراجيديا حياة الكاتب العظيم وتحليلها تحليلاً عميقاً وكاملاً ، ذلك الكاتب ، الذي ارتاع وعادت إليه البصيرة . . . أو نجنب نفسنا عناءً كهذا ونعلق بطاقة على شاهدة القبر وندوسها بالقدم . . . «أذكى الأذكياء» ، كاتب رأى الكثير ، يجدر بنا أن نتساءل ، ما الذى حدث له ؟» .

«أذكى الأذكياء» ـ مقالة مشكوك فيها . كان غوركي ابن زمانه ، ولم يكن بعيداً عن تأثير الغوغاء والتزويرات . وأظن أنه كان مقيداً ليس فقط من قبل الارهاب الستاليني ، بل إلىٰ حد كبير بسبب احترامه لذلك الإنسان الذي كان

على رأس السلطة وتحول هذا الاحترام بالتدريج ليعيش في سرداب مظلم ، وهذا ما يجب إماطة اللثام عنه الآن .

يجدر القول ، أن غوركي عانى كثيراً من ازدواج روحي في أواخر حياته ـ وهنا بالذات تنحصر تراجيدتيه .

في هذا المجال نجد حقيقة وحيدة ، وردت في كتاب أ . أرلوف «الجرائم السرية لستالين» . تشير الى أن موظفي الشرطة السرية عثروا في بيت غوركي ، بعد وفاته ، على بعض المخطوطات غير المنشورة ، وبعد أن تمعن فيهما ياغود* تفوه بهذه العبارة : «مهما بلغ احسانك للذئب ، فإنه سيستمر في التطلع إلىٰ الغابة» . وعلى الاثر أصدر ياغود أمْرُهُ إلىٰ موظفيه ، الذين اطلعوا على هذه المخطوطات بوجوب الصمت . وقد جرى إتلاف جميع هذه المخطوطات واليوميات العائدة لغوركي بأمر خاص من ستالين .

اقتصر عرضنا هنا على جزء بسيط فقط من تلك الصفحات المجهولة لحياة غوركي . ونعرف تماماً أن هنالك وجهات نظر مختلفة عن مواقف غوركي ، تلك التي تبناها في سنواته الأخيره ـ وفقط وإذا أهملنا الايقونات وقرأنا الأوراق المحذوفة ، يمكننا أن نتوصل إلىٰ وضع تصور دقيق عن خلقه ، انطلاقاً من الوقائع والوثائق .

---

* ياغود ـ (أحد قادة المخابرات السرية السوفيتية في عهد ستالين (ك . . . ح . ب) ـ المترجم) .

الباب الثاني

بوريس باسترناك
معجزة الابداع الادبي

بمناسبة الذكرى المئوية الاولى لميلاد الشاعر الروسي - السوفيتي الكبير بوريس باسترناك ، دعت منظمة اليونسكو العالم الادبي لتسمية عام 1990 بعام باسترناك .

في زمن ما ، أشْعَرَ بوريس باسترناك إهداءً إلىٰ معلمه فاليري بروسوف* قائلاً :

اهنئك ، كما أبي
في مثل هذه المناسبة

وتابع قائلاً :

يؤسفني ويحز في قلبي ، اننا لا نستطيع أن نحتفل في مثل هذه المناسبة ونقيم مهرجاناً في المسرح الكبير . فالجدير بنا أن نفرش السجاد تحت قدميك .

هل كان شاعرنا يتنبأ بأن التاريخ سيعيد له الاعتبار ، وسيتحدث الناس عنه في ذكرى ميلاده المئوي .

أظن انهم سيحتفلون في التاسع من شباط احتفالاً بهيجاً بالذكرى المئوية لميلاد شاعرنا ، احد عظماء روسيا والعالم اجمع ، وسوف يحضر هذا الاحتفال الناس الحقيقيون ، ودعونا لا نسمح بذلك للمدلسين .

---

* فاليري بروسوف - أحد ممثلي ومؤسسي المدرسة الرمزية الروسية - المترجم .

أصبح شاعرنا رمزاً ونموذجاً يحتذى به في احترام النفس والثبات على المبدأ عند الملايين وأيقونة بالنسبة لمثقفي روسيا .

وهل يا ترى ستقرر لجنة باسترناك ، التي شُكلت للتنظيم وللاشراف على الاحتفال بهذه المناسبة ، اختيار قاعة كولون ، تلك القاعة التي جرت فيها مسرحيات المحاكمات الستالينية ، التي رفض شاعرنا التوقيع على رسالة تأييد لها عام 1937 ، مخاطراً بذلك بحريته وبحياته أيضاً .

ولد بوريس باسترناك عام 1890 في ضواحي موسكو من اسرة الفنان إل . او . باسترناك وهو كاتب روسي ـ سوفيتي . درس الفلسفة عام 912 في مدرسة ماربورغ في ألمانيا . نشرت أولىٰ أشعاره عام 1923 ، وأول ديوان شعر له «توأم بين السحاب» عام 1914 . أما مجموعتاه القصصيتان «فوق الحواجز» و «شقيقتي ـ الحياة» فقد نشرت الأولى عام 1917 والثانية عام 1922 ، مع العلم انه كتب الأخيرة صيف عام 1917 .

شكل بوريس مع كل من ن . اسييف ، س . بوبروف وآخرين ما سمي آنذاك بنادي «الاشعاع الادبي» ، واعتنقوا حينذاك مذهباً وسطاً بين الرمزية والمستقبلية .

تميز بوريس بالشعر الغنائي . أما في قصيدته «الفائدة العظمي» ، التي نشرت طبعتها الأولى عام 1924 والثانية عام 1928 ، فإنه ينتقل من الشعر الغنائي إلىٰ الشعر الملمحي ، ويقتفي بذلك أثر فلاديمير اليتش لينين (« . . . اذ يوجه تيار أفكاره باتجاه هدف محدد») . بعد ذلك بدأ ينشد قصائد يمجد فيها الثورة الروسية الأولى ، كما في «عام 1905» و «الملازم شميدت» اللتان صدرتا بين عامي (1925 ـ 1927) واستحقتا اطراء مكسيم غوركي الذي كتب عنهما قائلاً : «قصائد ـ ممتازة ، من نوع تلك الابداعات الفنية الخالدة» .

كتب بوريس مرة عن الشعر الغنائي قائلاً : « . . . أتمنى له أن يصبح أكثر بساطة . وأظن أنه رقيقٌ جداً وأحياناً لا تستطيع استيعابه أو أن تميز فيه الانطباع عن الأسلوب» .

تميز بوريس بشاعرية غنائية رفيعة الثقافة ، يتخللها احساس بالتفاعل العميق مع الطبيعة . أما أشعار الحب فهي عند شاعرنا قصائد الابدية ، تكشف ألغاز الحياة وتبرز ما كان من الطبيعة خافياً .

اتصف الطريق الشعري لبوريس بسعي مستمر لإماطة اللثام عن «جوهر وجود» الأشياء والظواهر ، ومحاولة التوصل إلىٰ امتلاك نموذج البساطة في التعبير ، الذي عكس عمق ووضوح رؤيته للعالم .

بدأ يظهر تناقض ظاهري في ابداع شاعرنا في الثلاثينيات وخاصة من خلال رؤيته للعالم عندما أخذ يشق طريقة في الواقعية الجديدة . هذا ما نلاحظه في تلك المرحلة فيما أبدع من كتب ، مذكرات خاصة ، قصص وروايات وعلى سبيل المثال : قصته «الجائزة المصونة» ، التي صدرت عام 1931 وروايته الشعرية «سبكتورسكي» ، التي عبر فيها عن قناعة تامة بأن الثورة حق بسمو اخلاقها ومنابعها وأهدافها . ومع ذلك فقد وقف ضد دعوة ديكتاتورية البروليتاريا ، لكنه لم يحبذ إستخدام العنف الثوري كوسيلة لتحقيق أهداف الثورة : وفي نفس الوقت عاد ليتدارك ذلك متطلعاً إلىٰ يوم الغد وداعياً لتجاوز الموروث ، وهذا ما نلاحظه من خلال قصائده المنشورة في كتاب «الولادة الثانية» ، الصادر عام 1932 .

أنت قريب

الاشتراكية بعيدة وغيرها من الأبيات

بدأ بوريس منذ بداية الثلاثينيات ترجمة اشعار الشعراء الجورجيين ـ ن . باراتا شفيلي ، آ . تسير تيلي ، ق . ليونيدزه ، ت . تابيدزه ، تشيكافان ، كما قدم ترجمة جديدة لمسرحيات شكسبير ومسرحية «فاوست» لغوته ، وأشعار ن . ساكس ، ب . شيلي ، جورج كيسة ، ب . فيرلين .

أما في سنوات الحرب الوطنية العظمى فقد كتب اشعاراً عن أبطال وكادحي الحرب «موت عامل المنجم» وغيرها . وفي عام 1943 صدر ديوانه «في قطارات الفجر» وفي عام 1945 ـ «مرتع الشتاء» ، التي بدأ فيهما يبتعد عن

طريقته الشعرية القديمة وأخذ يسعى وراء النموذج الكلاسيكي الجلي .

عانى باسترناك من أزمة ثقة عميقة في الخمسينيات ، عبر عنها من خلال روايته «دكتور جيفاكو» ، التي يُظهر فيها علاقة سلبية بالثورة وشكوكاً بامكانية الانتقال إلى المجتمع الاشتراكي .

نشرت هذه الرواية في الخارج عام 1957 ، ونال باسترناك على أثر ذلك جائزة نوبل عام 1958 ، الأمر ، الذي اثار ضجة ونقداً حاداً في الصحافة السوفيتية ، جرد باسترناك على إثرها ، من عضوية اتحاد الكتاب وقد رفض الذهاب لتسلم الجائزة* .

بعد يوم طويل من التفكير والعمل ، جمع باسترناك أوراقه من على الطاولة ، وازال جميع آثار أدوات حربه بالكلمة وذهب ليموت . حدث هذا في آخر أيام شهر آيار لعام 1960 .

لم يبق على طاولته سوى محبرة زجاجية كروية ، وعلبة مصنوعة من الالمنيوم ، احتوت على اقلام رصاص واقلام حبر . كان بوريس يفضل الكتابة بحبر بنفسجي اللون مستخدماً لذلك ريشاً مشطورة . وكان يتلذذ عندما يغمس الريشة في الحبر ويخط ، بها على الورق ، خطوطاً مختلفة .

عن يمين الطاولة ، الواقعة في غرفة عمل كبيرة في الطابق الثاني ، تستطيع أن تشاهد حديقة وبستاناً صغيراً ، وحقولاً - انتشرت خلف اسوارهما - جرداء احياناً ومزهرة احياناً أخرى . وكأن هذه الحقول كانت امتداداً مكانياً لطاولة عمله .

أما الآن ، فيقع لحد باسترناك في نهاية هذه الحقول على ربوة صغيرة تحت صنوبرات ثلاث .

---

* «هنالك بعض المصادر ، تشير إلى أن بوريس باسترناك لم يرفض السفر لتسلم الجائزة ، وإنما لم يسمح له بالسفر لهذا الغرض - المترجم» .

عاش باسترناك نداء المستقبل ولم يكترث بيومه الحاضر . «حان الوقت لشق طريق المستقبل» ـ لم تكن هذه كلمة عابرة ، صدرت عنه ، بل كانت ناطقاً بفكره الحياتي .

لم يبحث بوريس عن الألفاظ ، بل كان على الدوام يبحث عن المعنى :

أنْشُدُ استيعاب كل شيْء
وصولاً للجوهر ذاته
في العمل ، في البحث عن الطريق

من كل قلبي

تشذبت أخلاق هذا الانسان ، الشاعر مع مرور السنين لتصبح أكثر كمالاً وانسانية ، وأكثر ابتعاداً عن الصيغ الجامدة والهرطقات . ويا لسخرية القدر ، عندما تقدم بعض من شخصات حاقدة علي، نعته بالجمود والهرطقة .

بدأ ابداعه بالظهور قبل الثورة ، أما سنوات نضوجه وآخر سني عمره فعاشها في العهد الستاليني ، وكانت الآلام ، التي تعرض لها أصدقاؤه ومعاصروه . تعصر قلبه الرقيق على الدوام .

وقد دفعه الألم الذي يعتصر قلبه الى القول :

«أصبحت كثير من الأفكار الكاذبة (غير الحقيقية) عقائد جامدة (متعصبة) لأنه عادة يجري طرحها دساً بالمزاوجة مع حقائق تمتلك أدلة دامغة ومقدسة ، ويتبع ذلك انتقال جزء من هذا الدنس سوية مع المقدسات والحقائق للتصديق والاقرار ، وهذا قطعاً لا يحدث من أجل الواجب» ، وهنا يجب أن نتأمل ملياً .

كانت كتاباته الابداعية ، ومداخلاته الكلامية ، وانتقاله من موضوع الى آخر ، ومن فكرة الى اخرى ـ قفزات تأملية وبصيات نظرية . إنها مدرسة فريدة بطبيعتها ، غير قابلة للاستبدال . امتلك باسترناك صفات انسانية تميز بها عن

غيره سميت الباسترناكية . كانت مخالطة الناس ومعاشرتهم نموذجاً حياتياً وطريقة لبث الابداع عنده واشعاره ، ونثره ، وترجماته ورسائله خير شاهد على ذلك .

إن للاقتداء بشخص أهمية كبيرة في الفن والى حد بعيد في العلم ، كما هو عليه الحال في الأسرة وفي العمل العسكري .

قبل أن يظهر الأدب في حياة بوريس باسترناك ، ظهرت الفلسفة ، التي تعلمها في ماربورغ من صاحب المذهب الكانتي ، كاغين ، الذي عرض على الموسكوفي الشاب العمل لنيل شهادة الدكتوراه ، إلا أن شاعر المستقبل رفض ذلك .

وقبل الفلسفة، كانت الموسيقى ـ عبارة عن هواية ممتعة. إذ كان يصدح البيانو في بيت باسترناك على الدوام . أمّ شاعرة وعازفة بيانو مشهورة ، وهي بالذات من درب انتون روبنشتاين . وكانت قد تعلمت الموسيقى نظرياً وعملياً تحت قيادة آنجيل وغليرا . اكتسب بوريس مهارة موسيقية إذ كان مولعاً بها «. . . لا يمكنني أن أتصور الحياة بدون موسيقى . . كانت الموسيقى معبودتي ، تلك النقطة المحرقية ، التي يجتمع فيها كل شيء ، جميل ، ذكي وابداعي عندي» . إلا أن باسترناك رفضها أخيراً .

قبل الموسيقى ، كانت الطفولة ولوحات والده ، ذلك الفنان الشهير ، الذي كان على الدوام يخرج أغلفة كتب تولستوي . وكان يجتمع في منزله أشهر فناني ذلك العصر : سيروف ، فروبل ، كورافين ، فازنيتسيف وتروبتسكي كما كانت تقام معارض رسم ونحت كثيرة وكلها مرت تحت أنظار بوريس في صباه .

لم يمر الرسم ولا الموسيقى ولا الفلسفة على حياة بوريس دون ترك بصمات .

أظهرت كتبه الاولى «شقيقتي ـ الحياة» و«فوق الحواجز» دخول فنان كبير الى دنيا الأدب ، يجمع في ذاته اسطوانة موليديكا متعددة الألوان والمواهب ناهيك عن

الأفكار . وهذا ما برز واضحاً في جميع ابداعات باسترناك اللاحقة ، التي لم تكن سوى وجوه مختلفة من الكريستال تسمى بوريس باسترناك .

كان ذلك فَتْحُ نَبَعَ من خصائص طباعه وشخصيته ، عندما رفض تعريف الرمزيين للابداع ، ذلك التعريف الذي يقول بأنه عبارة عن تعبير عن حياة الشاعر ، ودعا الى الكتابة من أجل الحياة نفسها ، تلك الكلمة التي يجب أن تكتب دائماً بحرف كبير .

«شقيقتي ـ الحياة» ، كتاب اشعار صدر في صيف عام 1917 واعتبره باسترناك كتابه الأول والمفضل . إذ أفصح فيه عن عقيدته ودافع فيه دفاعاً حماسياً شديد الاقناع عن معجزة الحياة ومعجزة الوجود . واعتبر أن الحياة «حديقة ربيع تزهر بكل شيء» من أين للشاعر أن يعبر عن الحاجة الى الوجود العقلاني والمشاركة في خلق الحياة ، دون وجود الحدائق الغناء ، والثلوج والورود .

كان بوريس نافذ الرؤية ، انسانَ بعثٍ ، ومن أوائل من توقعوا قدوم عصر من الارهاب وتجميد للطباع الانسانية الشريفة .

وقف باسترناك بعيداً عن الرمزيين لأنه لم يرشح من (فلاترهم)[1] الخطابية أية قطرة تندي نظام الحياة . وكان يعتبر أنه ليس هنالك من كلام غير مفيد ، كل شيء يفيد في بناء الحياة ، والقضايا لا تحل إلا بالسعي ، بالكلمات المتبادلة وتناقل الآراء . فعندما يكون عند الرمزيين «زهرة» وحيدة فقط نجد عند باسترناك حديقة متنوعة الثمار والأزهار .

اتصف قاموس باسترناك اللغوي بضخامته وغناه ، بقدر ما تفوح الحياة من غنى وتنوع .

سألعن العقيدة
معكِ سأهجر الحياد
أنتِ لست قيافة جميلة فحسب

---

(١) جمع فلتر وهو المصفاة .

أنك ـ صيف وملتقى
في الدرجة الثالثة
أنت ـ ضاحية
ولست نزوة

نعم ، بالطبع ، لا يوجد عند باسترناك قيافة جميلة . إنه من سكان الريف ودائماً يقوم بالسفر في عربة الدرجة الثالثة .

إنه من اولئك ، الذين يهيمون بالحياة ويفعمون بالتفاؤل . وهذا لا يكفي في وصف باسترناك . إذ انه لم يكن فقط ناطقاً باسم الطبيعة ومطرباً لها ، بل كان طلقتها وجزءاً لا يتجزأ منها وجهها الصوتي . وكأني به قد خلقته الحياة لكي تعبر عن نفسها ، وآلامها ، وفرحها وشجونها وعن أمورها القابعة في احجارها وعشبها ، فهو جدولها وصاعق نبضها .

أيها الهدوء ، أنت أروع
من كل صوت سمعته

صرح باسترناك ايضاً باسم ذلك الهدوء ، الذي يمر الزمن مدراراً ويطول وهو صامت ، وكأن الكلمات تختمر فيه كالخمر . لم يبدع بوريس حسب برنامج مسبق التخطيط . إذ كان يأتيه الابداع فجأة ، دون سابق انذار ، وعندها يصدح به بروح طيبة ومتواضعة ناسياً نفسه . ذلك الابداع الذي استمر وعلى الدوام يمثل ضمير زمانه . وكلمته اليوم ، ستعلن غداً ، وبعدها ستخترق البعيد ليسمع الجميع هديرها .

راعى بوريس في فنه على الدوام أصول العادات الروسية التقليدية ، التي كانت تنفجر كالبركان من داخله . كيف حصل ذلك ؟ حصل ذلك ، لأنه لم يستوعب خبرة المدرسة الرمزية في الشعر فقط ، بل استوعب كذلك ما جاءت به مدرسة ماياكوفسكي المستقبلية ، على الرغم من أن باسترناك وماياكوفسكي وقفا على طرفي نقيض . إذ توجه الأول الى كل فرد على حدة ، أما الثاني فكان يتوجه الى الجميع معاً . ومن هنا بالذات ولد الفرق في منهجيهما الأخلاقيين . تميز

باسترناك بالدقة ، بتداعي الأفكار وبالنص المعقد . أما ماياكوفسكي فامتاز بالاعلان الزاهي وبالنص البسيط .

سادت في أيام باسترناك مدارس عديدة منها الواقعية النقدية ، الواقعية الاشتراكية والرومانسية . فقد هاجم باسترناك ، كما هو معروف ، الرومانسيين إلا أنه لم يدعُ الى اهمال فنهم . لكنه عرف الرومانسية بأنها بداية للتسلط للغوغائية ، وللافراط في الحديث عن النفس أكثر من الحديث عن الحياة .

أما الواقعية ، التي تحدث عنها في وصفه لشابين ، فهي تلك الواقعية الوفية لحقيقة الشاعر لا للتسلط ، لقواعد الابداع ، التي هي الأساس الأول للواقعية ، لا للشاعر ذاته . «الحرفة ، حرفة الكتابة ـ الكلمة الرائعة» ، هكذا وصفت الشاعرة كارولينا بافلوف حرفتها الكتابية ، وسارت مارينا تسغيتايف على نفس الطريق . أما بوريس فقد احترف هذه المهنة مبكراً وأصبح معلماً فيها ، وبعدها سرعان ما سحر بها ووصل الى تلك الدرجة ، التي استطاع ان يحدد فيها لنفسه طريق الابداع وماهيته .

وداعاً يا باع الجناح
المممدود
تصر على التحليق
وتكتشف العالم
وتمجد الكلمة

إنه ابداع ، بل معجزة في الابداع . والكلمات هنا لا تفي بالغرض في وصف تلك الطاقة الشاعرية العالية ، التي تمتع بها شاعرنا .

أصبح بوريس باسترناك ظاهرة للحياة الروحية المتفاعلة مع الوجود والثقافة يقف أمامنا ذلك الشاعر ، الشديد الاخلاص لدعوة بلوك بوجوب احترام ما سماه «بالحرية الخفية» تلك الحرية ، التي تفرض عليه كتابة سطور جريئة تفضح كل دنس في الحياة ، غير هياب من أي شيء .

نقرأ في آخر قصيدته «الفائدة العظمى» ، التي كتبها عام 1924 :

احلم بالولادة .
قرون ، رازخة تحت الأغلال
تنذرنا الضرائب
ويُقْبِلُ الاستبداد
وتُثار العبودية لأول اغتصاب

لا نجد مثل هذا الموشح إلا في احدى الطبعات ، لأن الرقيب أقدم على حذفها من جميع الطبعات ، التي صدرت لاحقاً . ولم نعد نسمع مثل هذا النذير . ومثل هذا العمل ، لم يكن له أن يمر إلا بدفع ثمن باهظ قد يصل قطع العنق .

اعتاد الناس في بلدنا على الظن انه جرى تأنيب باسترناك فقط بسبب ما جاء في روايته «دكتور جيفاكو» وهذا ليس من الحقيقة في شيء . إذ باشروا ملاحقته ووضعه تحت المراقبة منذ مطلع الثلاثينات وكانوا يسمونه عادة المهاجر الداخلي ، المثالي الذاتي أو المرتد وانتهوا أخيراً بنعته بـ «الغريب عن الشعب» .

سقطت كالوحش
المطارد
غاب الناس غابت الحرية غاب النور
بدأت أثير الضجيج
فطاردوني
وليس لي طريق للخروج

ويتابع :

ما صنعته من دنس أنا ؟
أقاتلٌ ، أمجرمٌ أنا ؟

سأجعل العالم يبكي
كروية أرضي أنا

أصبح بوريس لاحقاً مثاراً للسخرية الدائمة ، الى الحد ، الذي أوصله إلى الاشمئزاز والقرف من الحياة . وهذا الشاعر ـ حارس الحياة ، تحدث عن هذا في آخر أيام حياته إلى بعض المقربين معلناً أنه يغادر هذه الحياة غير آسف .

لقد صوروه انساناً معزولاً عن العالم ولو أنه عاش حتى أيامنا هذه هل كان قد تساءل :

«كيف يا اعزائي ، ستكون عليه حال الألف القادمة لعصرنا ؟» وهذا السؤال ماهو إلا محاولة للانفتاح على الأبدية ، وبدونها لا يمكن أن يكون هناك أي شاعر . ومثل هؤلاء يكونون على الدوام «رهيني الأبدية والزمان وطريديهما» .

كان أسرُ الزمان قاسياً وطويلاً ، وما على الأسير إلا الصبر . وانطلق صبر شاعرنا وتحمله ، من دوافع كثيرة مختلفة ، منها ماهو اجتماعي ومنها ماهو خاص . ومع ذلك لم يتخلَ عن حماسه للحياة وللانسان ، وهذا ماعبر عنه في آخر أشعاره «متى يأتي الانتعاش» قائلاً :

فقدت الانسان

منذ تلك اللحظة ،

عندما فقده الجميع

كيف تصدح مثل هذه الكلمات ، بعد ماتفوه به ستالين من رياء حول الانسان «الرأسمال الأعظم عندنا !» ، ذلك الانسان الذي جعله «أبو الشعوب» قزماً بضغطه المستمر على رأسه .

اهتم باسترناك بكل شيء جرى في مجتمعه وبلاده . هزته تلك المجاعة التي اجتاحت اوكرايينا بين عامي 1931 ـ 1933 نتيجة لتدمير الكولاك كطبقة . . والمباشرة في تدمير الزراعة لاحقاً . كما أنه لم يكن بعيداً عن الاهتمام بصنوف العلوم ، من كيمياء وفيزياء ورياضيات .

انتقد باسترناك على الدوام بجرأة وحزم جوقات المديح والغزل ، كما كره الارهاب كرهاً أعمى . وخير دليل على ذلك ، رفضه التوقيع على برقية تأييد لحكم بالاعدام صدر بحق بوخارين ، ريكوف ، راديك وغيرهم .

اتصف باسترناك بخصلة ، لايمكن ملاحظتها بسهولة . إذ كان يبدأ ابداً دائماً من التراجيديا ، وعلى الرغم من عدم طفوها على السطح ، إلا أنها كثيراً ما كانت حادة السخرية . وتظهر للوهلة الأولى على انها غير قابلة للتحول إلى كوميديا حزينة ، كما في «الريح» وفي «اربع مقاطع عن بلدك» ، إذ نقرأ :

لكم تهدى الحياة
والمدائح
ولهم الموت والتأنيب
نعرف مدلّسي الزعيم
الوحيد الأوحد
ونعرف أصحاب الدكتوراة
لكننا نحترم بوشكين
والعالم يؤيدنا أيضاً

كان باسترناك شديداً في حساسيته تجاه مايحدث في وطنه ، وهذا مايظهر في أبياته السابقة بما تثيره من سخرية كوميدية . وبالمقابل قام ثلاثة من الفلكيين بإطلاق أسماء ثلاثة نجوم تقع بين مارس وجوبيتر ، على ثلاثة من الكتاب الروس هم ـ فيودور دستوفسكي ، ميخائيل بولغاكوف وبوريس باسترناك .

---

(2) ـ الكسندر فاديف ـ كاتب روسي ـ سوفييتي . ولد عام 1901 ومات عام 1956 منتحراً . كتب الرواية وأشهر ما صدر منها «الهزيمة» ، «آخر من تبقى من اوديغ» ، «الحرس الفتي» ، «المد» .

شغل لسنوات عديدة ، منصب الرئيس لمجلس اتحاد الكتاب السوفييتي ، وكان عضواً مرشحاً في اللجنة المركزية وعضواً في مجلس السوفييت الأعلى وعضواً في مجلس السلام =

يعرف القارىء الروسي والسوفييتي بوريس باسترناك من خلال ما نشر له من كتب على امتداد العقود الماضية . أما خارج الاتحاد السوفييتي فلم يبدأ القارىء بالتعرف عليه إلا بعد صدور رواية «دكتور جيفاكو» وخاصة بعد ذلك الجدل الحاد ، الذي دار حولها . لكن مع مرور الزمن تعمقت معرفة القارىء بشاعرنا ، من خلال مانشر لاحقاً من أشعاره ومقالاته ، وحينئذٍ وعى القراء أن أمامهم شخصية ابداعية أدبية هامة ، ذات غنى روحي شفاف وعميق ، أن أمامهم فنان كلمة قوي الشكيمة ، تطور منطلقاً من تقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي مغموساً بالظروف التاريخية الحديثة .

فضل باسترناك التواضع والأخلاق الحميدة على السعي وراء مجد زائف ، متخذاً طريق الابداع من خلال التجربة وتميز ابداعه بعمق سيكولوجي وفلسفي وإدراك للعالم وللروح الانسانية وكأني به قد حصل عليها من خلال مجاهر ميكروية دقيقة . هذا ما اتصف به فناننا ، وهذه هي خصاله الأخلاقية .

وقف بوريس باسترناك في جميع انواع ابداعاته ضد تلك الصرعات التسلقية والظواهر السلبية في زمنه ، وتوجه بجدية وبهدفيه الى الانسان منشداً دائماً :

«. . . الحياة ، الحياة ، وفقط الحياة . . حتى النهاية» .

وهنا يطرح سؤال وجيه ، يستفسر عن السبب الذي جعل الاضطهادات والتصفيات السياسية تبقى بعيدة عن بوريس باسترناك ، على الرغم من تناقضه الواضح مع التوجهات السياسية والأدبية ، التي شاعت في فترة حكم ستالين . علنا نجد في ما سنعرضه في السطور التالية ، التي نعرض فيها شيئاً من علاقة الأديب والسياسي الكسندر فادييف[1] بشاعرنا باسترناك توضيحاً لذلك .

= العالمي وعضواً في مجلس الدفاع عن السلام . نال ميداليات وأوسمة عديدة أيام حكم ستالين . كان مقرباً جداً من ستالين ومستشاره الخاص .

كان فادييف مفعَم الثقة بستالين ، وعندما كنا نجلس[3] سوية في القاعة أتوصل إلى قناعة شديدة بأنه صادق في ثقته هذه . ومن حين إلى آخر كان يتراءى أن هنالك تناقض ظاهري في ذلك . تأكدت من ذلك مرة ، حينما خرجت مع فادييف من مطعم (آراغفي) واتصل ببيت بوريس باسترناك وقال له على الهاتف :

ـ بورنكا ـ أنت عندنا الوحيد الأوحد ، الذي لا يكذب . . .

بعد عدة سنين من ذلك . . سردت لي زيناندي نيكالاييف (زوجة باسترناك) بعض الوقائع ، التي على الرغم من أنها لاتخرج عن الطبيعة المعاشة ، إلا أنها تقع خارج مجال بهرجة الحياة .

ـ في بداية الحرب ، استشهد أديك (ابن زيناندي من زواجها الأول) وعلى الإثر طلب بوريس من فادييف مساعدة للحصول على سماح بدفنه في حديقة بيتنا الريفي ، الذي استأجره بوريس في منطقة (بريالكين) ، تلبية لوصية آديك الأخيرة . لبى فادييف هذا الطلب ، على الرغم من أنه كان يتعارض مع القوانين السوفييتية .

ـ أمر فادييف ، قبل عودة بوريس من الاجلاء (الهجرة) ، بغرس بضع شجرات تفاح في حديقتنا . وعندما وصل باريس قال له :

تنتظرك أيام قاسية ، يابوريس .

ـ اعتاد فادييف على زيارتنا ، وفي كل مرة كان يحمل معه زجاجة من الفودكا ويطلب مني أن أقلي لهما بعض البطاطا . وفي نهاية كل جلسة شراب ، كان يخاطب بوريس قائلاً : غداً سوف ترسل لي يا بوريس رسالة صغيرة ، تقول فيها :

«البارحة ، لم تسهر عندنا ولم تقل شيئاً» .

وكانت تحدث أمور مغايرة تماماً :

ـ (3) ـ المتحدث هنا ، هو كاتب هذه المقالة ، انظر المراجع .

ـ منع ستاسيك (ابن زيناندي الثاني) من السفر إلى وارسو للمشاركة في مسابقة «شابين» الموسيقية . (حتى الى وارسو !) . لجأت الى فادييف وكلمته بالأمر . لكن دهشتي كانت كبيرة حينما أجابني قائلاً : يا زيناندي ، قبل أن يرسلونا الى الخارج يشمون ما وراءنا . وما يقومون به صحيح تماماً . .

أجبته قائلة : لكنك تعرف ستاسيك ، لقد ترعرع أمام ناظريك . إنتفض فادييف وقال بلهجة قاسية : لا ، لا ، لا ، لا تنطقي بهذا . بوريس ـ هو من ربى ستاسيك فوجئت عندها وقلت له : «أشكرك على هذا الاكتشاف !» ـ غادرته ، وقاطعته طويلاً .

وبالمناسبة ، لا أحد يعرف سبب عدم اقدام ستالين على اعتقال باسترناك . مع العلم أنه أقدم على اعتقال كل من أحاط به ، وهو الوحيد الذي لم ينفذ بحقه أي اجراء . أشيع في الأوساط الأدبية ، أن فادييف هو من أنقذ بوريس ، لأنه كان يحبه ويكن له وداً كبيراً ، وكأني به استطاع أن يشفع له أمام ستالين .

هذا أمر يصعب تصديقه . ما هذه إلا وجهة نظر .

الى فاليري ياكوفلوفيتش بروسوف*

بتروغراد 1922/7/15

عزيزي فاليري ياكوفلوفيتش !

. . . إذا امتلكت الشخصية وجهاً ، وكان هذا الوجه متكاملاً ، فإنه يوجد في كل مستوى انفعالي لهذه الشخصية (غرامي ، ارادي ، ابداعي وغيره) ـ وجه إنساني آخر ، يشرق كماله الأول فيها منطلقاً من البداية ، وحضوره يصدم وجهها أو يضيء ويستضيء ويتجمع أخيراً في وحدة واحدة كلية .

★ ـ رسالة غير منشورة لبوريس باسترناك .

وهذا الوجه ، المعبر عن مشاعري الفنية ، الابداعية وما تعلق منها بإحساسي بنفسي كشاعر ـ هو أنت .

كم يصعب عليَّ التعبير عن ذلك يافاليري ياكوفلوفيتش ، الى تلك الدرجة ، التي يصبح فيها ذلك نوعاً من أنواع الفانتازيا ، إذا صحّ استخدام مثل هذا التعبير وكأنني أقوم بحل معادلات في علم الجبر ، لكنني أقول وبدون أي تردد : إنني شديد الامتنان لك ، لأنني توصلت إلى درجة الشعور بك في ذاتي دون محاكاتك ، وهذا هو مايجعل مني شاعراً .

إن مشاعري هذه غنية بما ترسب فيها من آثارك وانعكاسات انتاجاتك فعلى سبيل المثال ، انني أفرح وافتخر بعد كل نجاح خارجي وأحتفظ بهذا الفرح لنفسي كصديق أليف ، طفولي ودود ، وهذا الفخر ، الذي وصل الى درجة الاشباع يعود لك بالذات .

هل تعلم يافاليري ياكوفلوفيتش ، انني لم احتفظ بهذا الفخر لنفسي وإنما كنت فرحاً وبعد كل عمل ناجح لأن قضية بروسوف (أي قضية الشعر الاندفاعي «الزوبعي» ، الملحمي) تسير الى الامام وتنتقل من اعتراف الى آخر .

ـ على سبيل المثال ، ما يجري هنا في بتربورغ . لقد فضل ميخائيل الكسندر كوزمين نصي النثري المنشور في «في أيامنا هذه» على ما نشر عن بيلي والكسي تولستوي ناهيك عن بلنياك وسيرابيونت وعندما صرحوا لي بذلك ، انتابني شعور عارم بالفرح ، وتذكرت ذوقك ونداءاتك وتوصياتك وتمنياتك الطيبة لقضية الأدب ، اصدقائك ، ميولك وأهدافك ، التي لم يبتسم الحظ لك في تحقيقها .

عندما اقترب موعد سفري وأصبح ذلك جلياً ، وتبين لي أنني لا أملك الوقت الكافي لزيارتك ، قررت أن أطلب الرأي فيما استجد من أمور:

زارني فالانتين بارناخ وطلب مني أن أنقل لك كتابه كهدية وحدث هذا منذ عدة أشهر . ومنذ فترة قصيرة وعندما صَدر كتابي «شقيقتي الحياة» ، قررت أن

احضر بنفسي نسخة منه هدية لك مع كتاب بارناخ الذي تريثت في ارساله ريثما يصدر كتابي .

لكنني وبسبب عدم مقدرتي على التحكم بالوقت لم استطع أن أقوم بذلك ، وانني اعترف بعدم قدرتي ومهارتي في الحياة ، في توزيع الوقت بين الهام والثانوي ، الجوهري والعابر بحيث لا يحصل ازعاج لأحد أو هدر للوقت . وانتهى الأمر إلى أنني حملت كلا الكتابين الى بتروغراد . إلا انني اعدك بارسالهما بالبريد حال وصولي الى مبتغاي .

سأسافر الى المانيا لمدة نصف سنة أو سنة كاملة إذا تسنى لي ذلك ، قاصداً العمل . ففي موسكو يصرون على أنني لا استطيع أن أوزع الوقت بين العمل وغيره ، ويمكن أن يكون ذلك لأنني لا استطيع التعامل مع الحياة .

اعترف أنني بهذا سوف اترك لهم المجال لتشويه سمعتي ، لأنهم وبدون ادنى شك سوف يقدمون في غيابي على انزالي الى اسفل السلم ، بنفس الطريقة ، التي رفعوني بها الى القمة ودون استشارتي ، بالرغم من انني كنت لا أزال طري العود ، مبتدءاً وغير ناضج . يقدم على هذا العمل شباب . هل تتصور أن بعضهم كتب عن مؤلفي «شقيقتي ـ الحياة★» دون أن يقرأه ، واكتفى بشذرات ، نقلت بشكل أفقي ودائري خلال وسطاء .

أستدعيت من قبل تروتسكي قبل موعد سفري . تبادلنا الحديث حوالي نصف الساعة عن القضايا الأدبية ، وكم تأسفت لأن الحديث كان يصدر مني باستمرار ، إذ كنت كلي رغبة لسماعه . وعلى إثر هذا اللقاء تبين لي أن ضرورة هذا الإستدعاء لم تنحصر فيما طرح فيها من أسئلة ، متعلقة بأسباب سفري ، وإنما في تلك الشائعات الكاذبة ، التي روجت عن هذه الأسباب والتي تمس شرفي ووطنيتي . سألني عن سبب تحفظي في الكتابة عن المواضيع الإجتماعية ، منطلقاً

★ ـ بوريس باسترناك «شقيقتي الحياة» ، كتب هذا المؤلف عام 1917 ونشر عام 1922

بذلك من كتابي «شقيقتي الحياة» . وهنا لا يسعني إلا أن أعترف أن تروتسكي خلب لبي .

واعترف أنه كان محقاً في وجهة نظره التي طرحها . أما إجاباتي فانحصرت في الدفاع عن الفردية الحقة كخلية اجتماعية من الجسم الاجتماعي العام الجديد .

إنطلقت من ايماني بالحداثة وأكدت على ذلك ، وبينت أن الرمزيين الفرنسيين وغيرهم من معاصري البرجوازية المتدهورة ، ينتمون لعصرنا وليس لتاريخ البرجوازية الصغيرة . وكانوا قد تخلوا عن هرطقات هذه البرجوازية حينما تصالحوا مع عصر هيجو الأدبي ، أما موتهم كمذهب أدبي فكان بسبب تقاعسهم وقبولهم الهزيمة ـ. وليس كما يشاع بأنهم كانوا شديدي الحساسية وعبروا عن ذواتهم بابداع حتى الانتحار . كما وضحت له أنني سأفكر بفردانية اكثر في اعمالي المستقبلية . لكن بالاضافة الى ذلك ، كان لأبد أن أقول أن «شقيقتي الحياة» هو كتاب ثوري بالمعنى المميز للكلمة وأن مرحلة الثورة أقرب الى القلب والاشعار ـ وأن إنبثاق الثورة يكون بإعادة الانسان الى الطبيعة والنظر الى الدولة بعيون الحقيقة الحقة . كل فصل من هذا الكتاب يعبر عن تلك الروح ، عن طبعها ومحتواها .

. . . سأكتب لك لاحقاً من الخارج ، سأقيم في البداية في فاسانيستراسي
Fasanenstrasse ˊHI, Pension Fasanenesk Berlin W. 41

ـ احييك بحرارة واتمنى لك الخير والسعادة وتحقيق الأماني من كل قلبي الى اللقاء .

المولع بك بوريس باسترناك

بوريس باسترناك
ذكريات سنوات مختلفة

مع مرور السنين ، يزداد الاهتمام بابداع بوريس باسترناك (1890 ـ 1960) ، الشاعر الروسي الكبير ، الذي وصل الى مصاف مشاهير كتاب العالم بجدارة . ولا نزال نكتب على حياته من ذكريات من عايشوه .

والسطور التي بين أيدينا هي مقتطفات من كتاب صدر لغالينا* نايقاووز تحت عنوان «ذكريات عن بوريس باسترناك» ، كتبته عن شاعرنا بوريس باسترناك .

باديء ذي بدء ، بان لي قبيحاً جداً ـ وجه متطاول ، فك قاس ، انف ضخم ، شعر متهاوج ، وذو صوت بطيء رخيم من الصعوبة التعود على سماعه ، وكان سريع الانتقال من موضوع الى آخر وأحياناً يتراءى لك أنه يجيب على سؤال خاص به داخلي ، لكنه كان رائع التشكل عندما كان يلقي شعراً !

في عام 1944 ، قابلته أول مرة عند اصدقاء من عائلة اسموروف . لم يكن في هذه الجلسة شباب خلافي وستانيسلاف* ، أما البقية فكانوا من متوسطي

(*) قالينا نايقاووز ـ زوجة ستانيسلاف نايقاووز .

(*) ستانيسلاف نايقاووز ـ ضارب بيانو شهير ، ابن زوجة باسترناك الثانية «زينايدا» نيكولايف من زوجها الاول غيزيخ نيقاووز الموسيقي العالمي وصديق بوريس باسترناك ـ المحرر

السن وعددهم أربعة ، ثلاثة من عائلة اسموروف ورابعهم باسترناك .

خلال الجلسة ، كنت خجولة جداً . ادرك بوريس ذلك على الفور وبدأ يخاطبني بشكل مباشر ويجرني إلى الحديث المشترك ليزيل هذا الخجل . كان وقتها مدراراً ، عالي الصوت ومزوحاً ، قرأ أشعاراً جديدة وكان فرحاً جداً لسبب لا أعرفه . حتى أنه بعد أن عرف أنني لم اتعرف على أشعاره ، برر ذلك قائلاً أن مرحلة حياته المبكرة كانت صعبة وعصية على ادراك الكثيرين ، وانه هو شخصياً لا يحب أشعاره المبكرة تلك . واستطرد قائلاً : «سيصدر لي في هذا الصيف مجموعة شعرية صغيرة سأهديك إياها حتماً» .

في عام 1946 ، تَزَوَّجت ستانيسلاف ـ وخلال الاربعة عشر عاماً المتبقية من عمر باسترناك ، كنا نعيش معه تحت سقف واحد في بيريديلكين من الربيع حتى أواخر الخريف من كل عام ، ما عدا الأوقات ، التي كان يتوجب علينا السفر ليقيم ستانيسلاف حفلاته الموسيقية .

داوم بوريس على نظام حياة رتيب ، يصحو في الثامنة ، يقوم ببعض التمارين البدنية ، يغسل وجهه بماء بارد في الهواء الطلق ، يتناول طعام افطاره ومن ثم يتمشى في حقل المنزل الريفي الصغير ، زارعاً أو عازقاً ، بعد ذلك يصعد الى مكتبه في الطابق الثاني ليعمل فيه حتى الواحدة ظهراً ، ومن ثم يذهب ثانية ليتمشى حتى الثالثة ، موعد تناوله طعام الغداء . ومن عاداته التأفف ، حينما يصدف أن يتأخر أحدنا عن موعد الغداء . وأثناء الغداء عادة ما كان يتحدث عن الرسائل ، التي كانت تصله تباعاً من متابعي انتاجه الأدبي (وكان يجد الوقت للاجابة عليها جميعاً ، على الرغم من كثرتها) . بعد الغداء ـ ساعة من الراحة ، ومن ثم يعد لنفسه الشاي ويذهب ثانية للعمل ، الذي كان يستمر فيه حتى الثامنة مساءً . ومن الثامنة حتى موعد تناول العشاء في العاشرة ، كان يذهب ثالثة ليتمشى .

لم يطرأ اي تبديل على هذا النظام إلا نادراً . وكانت زنيايدا نيكولاييف حريصة كل الحرص على عدم إعاقته اثناء عمله . كان الهدوء يخيم على البيت ذي النظافة المطلقة والترتيب الجيد .

تميز مكتب عمل بوريس بالتقشف . إذ لم يكن يوجد في هذه الغرفة الفسيحة سوى خزانة كتب قديمة (من الظاهر أنه كان قد ورثها عن ابيه) ، احتوى على موسوعة برودفاوز واخرين ، واريكة من صنع يدوي مغطاة بحرام قديم . لاحقاً وضعوها تحت النافذة واحتل مكانها سرير حديدي قديم استخدمه للمنامة . طاولة كتابة والى جانبها منصة للكتابة ايضاً (ابتاعها بعد أن أصبح يعاني من آلام قطنية ، الامر الذي اجبره على الكتابة واقفاً) . الى جانب منصة الكتابة نشاهد صفوفاً من الكتب ، اصطفت من ارض الغرفة حتى سقفها . والى اليسار من الباب نجد على الحائط تعليقة ثياب ، تدلى من عليها طاقية رأس وبذة يستخدمها لاعمال الزراعة في حقله الصغير . كان ينظف مكتبه بنفسه . واثناء العمل كان وجهه يتجه باتجاه الباب ، الذي كان يطل على منطقة الحقول والكنيسة .

كان بوريس ليونيدوفيتش بسيط الطلبات ولا يكثر منها ، خاصة ما يتعلق منها بالطعام أو بالكساء أو بالترتيب . قبل الحرب ، استقدموا امرأة متوسطة العمر من قرية نائية لتشرف على أمور ابنتهم لينا . هامت هذه المرأة البسيطة بلينا الصغيرة وسرعان ما انتقل هيامها الى بوريس ليونيدوفيتش . امتلك بوريس زوجين من الاحذية الجديدة . وفجأة شاهد تحت سريره زوجاً جديداً . اندهش لهذا ، وبعد الاستقصاء عن مصدرها ؟ لم يستطع احد الاجابة ، أما ماروسيا فخرجت من الغرفة بكبرياء . وبعد بعض الوقت ، ظهر زوج جديد من الاحذية . على اثر ذلك ، قال بوريس لماروسيا متضرعاً : «ماروسيا ! إن نمرة حذائي ليست اربعين ! ولو كنت احتاج للاحذية لاشتريتها بنفسي . وانت تبعثرين النقود» . اجابت ماروسيا : «ولماذا لا تشترون منها ؟ انظر الى الكتاب الاخرين ، كيف يتأنقون» . أثاره اهتمام ماروسيا به ، وبدأ يوضح لها أن

الملابس - هي الشكل الخارجي ، والرئيس هو امتلاك الضروري منها ، وبما يتبقى من النقود يجب مساعدة الآخرين .

مرة ، في خريف عام 1947 ، اتذكر أنه وصل الى البيت الريفي انسان غريب ، يرتدي أثمالاً ممزقة وجزمة قديمة جداً ومهترئة . قرع الباب وطلب استدعاء باسترناك . نزل بوريس بسرعة وخرج الى صحن الدار . سمعته يدعو الرجل للدخول الى المنزل ، لكنه رفض الدعوة . مكث بوريس طويلاً معه قبل أن يصعد الى غرفته ليجلب بذة ومعطفاً واشياء اخرى اعطاها جميعها لهذا الزائر المفاجىء . وحينما عاد ، بانت على وجهه علائم الاضطراب واثناء تناول طعام العشاء ، حدثنا عن حياة قاسية لمعلم من الريف ، وعن اعتقاله في معسكرات الاعتقال . وكيف تسنى لهذا الأخير الاحتفاظ بمجموعة شعرية له ، كانت عزاءه الوحيد في معتقله . وكان الذي يخشاه أن لايرى الشاعر العظيم باسترناك . لهذا وفور اطلاق سراحه من المعتقل ، سافر الى موسكو وبعدها الى بيريديلكين ليرى شاعره هذا . وحينما قال بوريس ليونيدوفيتش في معرض حديثه عنه : «إنه يحفظ اشعاري غيباً ، حتى تلك ، التي نسيتها أنا تماماً» . كان صوته يرتجف .

في الخمسينات ، مددوا خطوط هاتف الى منازل الادباء الريفية . رفض بوريس هذا الأمر رفضاً قاطعاً ، لأنه كان يرى وجوب اختلاف ريف موسكو عنها كمدينة ، ويجب أن يكون هذا الريف غير متصل بها ، والهاتف يجعل هذه الصلة مباشرة . وسلوكه بما يخص ذلك كان طقوسياً . إذ كان يذهب مرة أو مرتين اسبوعياً الى طرف الضاحية ليتصل بالمدينة لحل بعض الأمور ، وفي حالات نادرة كان يسافر لزيارة فسيڤالود ايفانوف ، إذا كانت هنالك امور مستعجلة يتوجب بحثها .

واكثر إبهاجاً لباسترناك كانت زيارة الضيوف . حيث كان شديد العناية باعداد طاولة الطعام والشراب ، التي سيجلسون حولها ويجاهد لكي يكون كل شيء موزعاً بشكل مريح وانيق وأن يكون الضيوف على أتم الارتياح والبهجة . ومن بين الضيوف ، كان للشعراء الجيورجيين مكانة خاصة عنده . كانوا

يقرضون اشعارهم ، وبوريس ليونيدوفيتش يقرض بدوره آخر اشعاره ويتحدث عن ترجماته عن اللغة الجيورجية . ومثل هذه الجلسات ، كانت تطول حتى تأكل الليل كله . واحياناً كان الجيورجيون يغنون بعضاً من أغانيهم القومية ، التي كانت تأخذ من باسترناك الوجد كله ، وتجعل دموعه مهرارة على خدية . وبين هذا وذاك ،يقول موجهاً قوله للجميع : «ما أروع هذا ! فمن أجله فقط تستحق الحياة أن تعاش» .

بين حين وآخر ، كانت تدور بيننا احاديث ممتعة جداً ، لهذا تذكرتها . وفي بعضها تحدث بوريس عن المكالمات الهاتفية ، التي دارت بينه وبين ستالين .

في الثلاثينات ، عاش باسترناك في شقة عامة (مشتركة) . احتوت هذه الشقة الكبيرة على هاتف وضع في الكاريدور للاستخدام العام . مرة من المرات ، رن جرس الهاتف وكان على الطرف الآخر بوسكر يبيسشيف (سكرتير ستالين) ، الذي دعا باسترناك وطلب منه التحدث مع ستالين . إنتاب بوريس ليونيدوفيتش الاضطراب ، واراد أن يتحدث معه عن امور كثيرة ، إلا أن رؤوس الجيران التي نفرت من الابواب ، جعلت الأمر صعباً . خاطب بوريس ستالين قائلاً : أمر جيد لو أننا تقابلنا . لم يجب ستالين على هذا بأي شيء ، وبعد برهة صمت ،قال :يكتب أحد اصدقائي الشعر ويريد التعرف على رأي بوريس ليونيدوفيتش به . باشر باسترناك إثر سماعه ذلك بتقديم شرح مطول ومعقد (كما قال) فحواه أنه من الصعوبة بمكان الحكم على اشعار غير مطلع عليها جيداً . سأله ستالين قائلاً : هل يحتاج باسترناك الى اي شيء . أجابه بوريس ليونيدوفيتش ، الذي كان لا يزال مضطرباً أن كل شيء يسير عنده على ما يرام وليس بحاجة لاي شيء ، على الرغم من أنه كان يعيش ظروفاً حياتية سيئة جداً .

بعد عدة ايام ، تسلم شاعرنا الاشعار . كانت اشعاراً غير ممتعة وذات اسلوب بدائي . ادرك بوريس أن هذه الاشعار من نظم ستالين ذاته . وبدأ يفكر متعذباً ، كيف يمكنه أن يصرح بسوئها له . إلا أن جرس الهاتف لم يرن لفترة

طويلة ، وهدأ باله أخيراً ، ظاناً أنه تم نسيان كل شيء بشأن الاشعار .

فجأة ـ يرن الجرس . فأجاب بقرارية : الاشعار رديئة ، والافضل لصديقك أن يشغل نفسه بأمر آخر ، إذا كان متاحاً . صمت ستالين برهة ، قال بعدها : «شكراً للمصارحة ، سأنقل له رأيك» . بعد هذه المخابرة الهاتفية ، انتظر باسترناك قدومهم لاعتقاله ، إلا أن أمله خاب . ومرت الحياة بهدوء وواضبوا على نشر مقالاته واشعاره ، التي كان يرسلها للدوريات الرسمية .

والحديث الآخر الذي اتذكره جيداً هو ـ بينما كان باسترناك يتمشى كعادته ، إلتقى بماندلشتام** ، الذي فور رؤيته لبوريس بدأ يتلو اشعاراً مخيفة تنقد ستالين . اضطرب المستمع وانزعج جداً وطلب من ماندلشتام تمزيقها . وهذا لم يظهر اية ردة فعل لمخاطبه سوى الابتسام . وبعد وقت قصير ، اعتقلوا ماندلشتام .

بعد سماع باسترناك بذلك كتب بهذا الشأن رسالة وجهها الى بوخارين ، الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس تحرير صحيفة «الازفستيا» . وفي اليوم التالي ، رن جرس الهاتف وكان ستالين على الطرف الثاني للخط ، الذي قال : «تلتمسون لماندلشتام ؟ لماذا لم تتوجهوا بإلتماسكم هذا إليّ مباشرة ؟ هل هو صديقكم ؟» ـ أجاب بوريس ليونيدوفيتش على ذلك قائلاً : «لا ، نحن لسنا باصدقاء إننا مختلفا التوجه ، إلا أنه شاعر رائع !» . لم يلحق بوريس ليونيدوفيتش اكمال ما أراد قوله ، لأن ستالين انهى المكالمة فجأة بإغلاق الخط من طرفه . أفرجوا عن ماندلشتام ، لكنهم ابعدوه الى فارونج .

حدث مرة ، أن تطفلت على باسترناك سائلة إياه ، هل هو مُعمَّد وهل يؤمن بالله ؟ أجاب عن التعميد بالنفي ، وقال متابعاً ، هذا لا يحمل اية اهمية ، لأن التعميد هو شكل ، أما الايمان بالله فهو كالايمان بشيء خارج مجال ادراك الانسان ، وإنني على اشد قناعة أن الموت ليس هوالنهاية ، بل هو انتقال من

★★ـ ماندلشتام . و . مي (1891 ـ 1938) شاعر روسي سوفيتي ـ المرجع ـ الموسوعة السوفيتية الكبرى ـ المجلد15 ، ص321 ـ المترجم .

وضع الى آخر ، لهذا لا يخيفني . وصرح عن رغبته اثناء هذا الحديث بأن يوارى الثرى في مقبرة بيريديلنكي ،في موقع يكون فيه القبر مشاهداً من نافذة منزله الريفي .

في آذار عام 1957 ، وقع باسترناك صريع مرض شديد ، واينما كان ، إن في المشفى أم في المنتجع ، كان دائماً يحن الى مكتب عمله ويطالب بالعودة إليه . وإثر أيابه الى منزله باشر يعمل كثيراً لكنه سرعان ما أُضنيَ . وبدأ يظهر انزعاجه من زيارات الضيوف وساءت علاقته بغينريخ نيقاووز صديقه القديم وقل عدد زيارات عائلة اوسموروف . وفي عام 1958 ، لم تدع زينايدا نيكولاييف سوانا بمناسبة عيد ميلادها . وصلنا المنزل مساء يوم 24 اوكتوبر وفور دخولنا من الباب اندهشنا من شدة انارة غرفة الطعام . كان بوريس ليونيدوفيتش مرحاً ويحمل كاساً في يده وفي حالة عناق مع كورين ايفانوفيتش تشوكوفسكي*** . وشاهدنا في البيت صحفيين اجانب تحدثوا عن منح جائزة نوبل لباسترناك مكافأة على عمله «دكتور جيفاكو» . أجروا معه مقابلة صحفية والتقطوا بعض الصور . وصل كوستنين فيدين للتهنئة (لكنه كان مضطرباً ومشوشاً ـ إذ كان يخشى من ردة فعل اتحاد الكتاب) .

وفي اليوم التالي ، وصل الى طرف فيدين (بصفته امين سر اتحاد الكتاب) بعض العاملين في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وتم استدعاء باسترناك . وبعد حديث طويل اقنعوه برفض هذه الجائزة ، التي حسب رأيهم «ضربة سياسة موجهة ضد الاتحاد السوفيتي» . وعلى إثر ذلك توجه بوريس ليونيدوفيتش البائس الحزين ليرسل برقية الرفض . لم تقبل لجنة جائزة نوبل هذا الرفض . إلا أن بوريس باسترناك لم يسافر لحضور جلسة التسليم .

في السابع والعشرين من اوكتوبر صدر قرار عن أمانة اتحاد الكتاب يقضي بطرد باسترناك من عضويته . واللاحق ـ اعظم . حيث وجهت جلسة اتحاد

*** تشوفسكي ك . ي (1882 ـ 1969) ـ كاتب وناقد ومترجم روسي سوفيتي ـ المرجع ـ الموسوعة السوفيتية الكبرى ، المجلد 29 ص252 ـ المترجم

كتاب مدينة موسكو نداءً الى الحكومة طالبة فيه نزع الجنسية عن ما سمته بالخائن بوريس باسترناك .

مرة ، حينما كنت في أحد باصات النقل الداخلي الموسكوفية سمعت أحد الركاب يقرأ لجاره مقالة بصوت عال تهجمت بآخر سطورها على باسترناك مشيرة الى النداء السابق الذكر . تدخل عدد من ركاب الباص في الحديث وعبروا عن اندهاشهم . عندها لم استطع ضبط اعصابي وسألتهم : هل قرأ أحدكم رواية «دكتور جيفاكو» . ساد إثر ذلك هدوء ، وخرق احدهم الصمت قائلاً : «لماذا ، إن ما نقرأه في الصحيفة واضح جداً ! خان الوطن !» .

عندما وصلت بيريديكلين انبأت باسترناك بهذه الحادثة . فأجاب بهدوء : (إنهم غير مذنبين ، تعودوا عدم التمحيص بأي أمر واكتفوا بالايمان بما تقوله الصحف . إقتطعي مقاطع معينة من كتاب «الدون الهادىء» واعزليها عن مجمل نص الرواية ، تجدين أنه بالامكان توجيه تهم أحّد من ذلك الى «شولوخوف» . وأنا على يقين تام أنهم فيما لو نشروا هذه الرواية «دكتور جيفاكو» فإن غالبية من حكموا عليها بمثل هذا القدح ، كانوا قد توقفوا عن متابعة قراءتها لأنه سيصيبهم الضجر ولا كنا سمعنا بأية ردة فعل عليها) .

عاش باسترناك اسبوعين من الاضطراب اثر ذلك ، لكنه بعدها عاد الى هدوئه وضبط اعصابه . أما شجاعته فلم يبدأ بفقدانها إلا بعد عودته من أحد استدعاءات اللجنة المركزية ، التي عرض عليه فيه مغادرة الوطن . سأل زينايدا نيكولاييف وابنته لينا قائلاً : هل ترغبان بالسفر معي ، إذا حدث واكرهوني على ذلك . رفضت زينايدا طلبه أما لينا فصمتت . تألمت لحالته هذه . بعد العشاء ، اقترب مني في المطبخ وقال : «أترين ، زينا ولينا ترفضان السفر ! وكانتا قد صرحتا لي أنهما ستبقيان معي حتى لو سافرت الى حافة الدنيا !» . قلت رداً على حديثه هذا بنوع من التهكم والمزاح : «لكن الى الغرب ، لا الى الشمال» ـ «أنت على حق ، وحسب وجهة نظرك هذا أمر طبيعي ، لأنها كانت في الشمال وتحملت ذلك بثبات» ، دار الحديث عن منطقة ايفنسك .

أما عن علاقته باولغا فسيفالودافوي ايفيسكوي فلم نعرف إلا في منتصف الخمسينات في أحد أيام الخريف ، بعد وصولي الى البيت عصراً صدمت عندما شاهدت زينايدا نيكولاييف ذات الطباع المتماسكة تبكي . وكانت هذه هي المرة الأولى ، التي تحدثنا فيها عن أمور عذبتها في تلك السنين ، إثر عثورها على رسالة موجهة من اولغا ايفيسكوي الى بوريس وذلك أثناء قيامها بترتيب غرفة مكتبه ، وعرفت من مضمونها الحقيقة . وشرحت لي كيف اقدم بوريس ليونيدوفيتش محاولاً أن يشرح لها ذلك مبرراً ، واعداً بانهاء علاقته باولغا ، إلا أنه أنبها لعدم اكتراثها ، كما ادعى ، بحياته الابداعية . وتحدثت زينايدا عن إحدى المرات ، التي عصفت فيها الامور بينهما ، وقررت حينها المغادرة مع ابنتها لينا وعن ردة فعل باسترناك الحادة غير المنتظرة حينها قال : «شكراً لله ، أخيراً ستحل العقدة !» . إلا أن زينايدا لم تذهب بهذا الخلاف الى نهايته ولم تغادر ، إثر ذلك قال بوريس : «شكراً لك يا زينا . كيف يمكنني العيش بدونكما» . وعادت المياه الى مجاريها .

عانت زينايدا نيكولاييف كثيراً ، لكنها كانت عزيزة النفس وتدرك شؤون الحياة جيداً وتخفي انزعاجاتها في خفايا نفسها . لا أتذكرها تراجعت مرة فيها عن مبادئها ولو قليلاً . في أحد أيام سنوات حياة باسترناك الاخيرة ، دار حديث خلف طاولة الغداء مفاده أن زينايدا نيكولاييف بدأت تقتصد في امور المنزل . كان مزاج بوريس ليونيدوفيتش حينها جيداً فقال مازحاً : «هل تريدون ، أن يصبح في منزلنا كم هائل من النقود ، لنعيش حياة المليونيرات ؟» .

سألته زينايدا «من أين نأتي بها ؟» ، أجاب باسترناك ضاحكاً : «من كلساتي الطوال ، التي املكها !» . إلا أن زينايدا ردت بحدية ظاهرة : «إن النقود ، التي نُحصل عليها بطرق لا اعرفها ، لا حاجة لي بها في منزلي . وافضل علينا العيش على البطاطا فقط» . بعد هذه الحادثة بوقت قصير ، عرفت أن الحديث كان يدور عن النقود التي حصل عليها بوريس نتيجة لنشر روايته «دكتور جيفاكو» في الخارج ، وكانت ترسل له في كل فرصة سانحة عن طريق اولغا فسيفولود ايفيسكوي . بعد وفاة بوريس ليونيدوفيتش ، اقترحوا على زينايدا أن

تجري اتصالات ما ، لكي تصلها النقود ، التي يستحقها بوريس على نشر أعمال في الخارج ، بطريقة غير رسمية (لأنه حتى ذلك التاريخ لم يكن هنالك وجود لاية اتفاقيات تشمل حقوق الكتاب السوفييت) . لكن زينايدا رفضت هذا الاقتراح بحزم . وكان أن عاشت بتواضع شديد دائمة الاضطرابات لخشيتها من عدم استطاعتها دفع أجرة منزلها الريفي .

في نيسان عام 1960 ، بدأ بوريس ليونيدوفيتش يعاني من آلام شديدة في قدميه وقلبه . ومنذ الخامس والعشرين من الشهر ذاته ، أصبح عاجزاً عن الوقوف . كان مرضه قاسياً ، إلا أنه صبر عليه . أما زينايدا فكانت شديدة العناية به أثناء مرضه . في بداية آيار وبعد وصولي الى المنزل الريفي مباشرة ، وبعد سماع بوريس ليونيدوفيتش صوتي وجه حديثه لي قائلاً : «قالا ! لا تنزعجي مني رجاءً ، لا اريدك أن تدخلي الى غرفتي ، إن منظري بشع جداً» . بعد ذلك لم أراه قط .

صارحني مرة أخاه الكسندر ليونيدوفيتش قائلاً أن زينايدا نيكولاييف اقترحت على بوريس ليونيدوفيتش استدعاء اولغا ايفيسكوي لفترة من الزمن تسافر خلالها بعيداً عنها (طبعاً الحديث يدور عن فترة مرضه) . إلا أن بوريس رفض ذلك قائلاً : «بدون هذا ، سيحاسبني الرب كثيراً !» .

ومات في 30 أيار من نفس العام

الباب الثالث

الشاعر رسول حمزاتوف

ولد رسول حمزاتوف في الثامن من ايلول عام 1923 في منطقة تسادو خونزافسكي في داغستان . كان أبوه حمزاتوف تساداسي شاعراً شعبياً وكان يمارس مهنة التعليم ايضا . بين عامي 1945 ـ 1950 ، درس رسول في معهد مكسيم غوركي للآداب في موسكو وبدأ كتابة الشعر عام 1937 . وفي عام 1943 صدر ديوانه الشعري الاول «الحب الحار والكراهية الملتهبة» . في سنوات الحرب ، وجه اشعاره لإثارة الحماس الوطني لدى الشعب السوفييتي وكتب «جبالنا» عام 1947 «أرضي أنا» عام 1948 ، «وطني ـ الجبل» عام 1950 ، «كلمة عن أخٍ كبير» عام 1952 ، «ربيع داغستان» عام 1955 ، «قلبي في الجبال» عام 1959 .

في قصيدته «الجبلية» ، التي صدرت عام 1958 يصور رسول حمزاتوف حياة داغستان الاشتراكية والتغيرات التي طرأت على سيكولوجيا أهل الجبال والصداقة الراسخة بين الشعوب ونضال الشبيبة ضد الجمود والعادات القديمة من أجل تحقيق حرية الحب والمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق .

وفي قصيدته «حديث مع أبي» ، التي صدرت عام 1953 عبر حمزاتوف عن الصراع بين القديم والجديد بحساسية مرهفة .

كان حمزاتوف يتمتع بمقدرة عالية في رسم الناس وتصوير حياتهم ، ولم تكن مقدرته أقل في تصوير طبيعة بلاده . في عام 1952 نال حمزاتوف جائزة الحكومة السوفيتية مكافأة على اشعاره وقصيدته «يوم ميلادي» الصادرة عام 1950 . أما جائزة لينين فقد نالها عام 1963 تكريماً له على مجموعته الشعرية «النجوم العالية» التي صدرت عام 1962 .

إن أهم مجموعاته الشعرية الذائعة الصيت هي «زاريما» عام 1963 ، «كتابة» عام 1963 و«نجمة تتحدث لنجمة» عام 1966 .

وفي مجال الرواية تميز حمزاتوف بروايته الوجدانية الوطنية «داغستان بلدي» ، التي صدر الجزء الاول منها عام 1968 وصدر الجزء الآخر لاحقاً (*) .

كتب حمزاتوف للاطفال «جدتي» عام 1967 . أما في مجال النقد الادبي فهو يلعب دوراً كبيراً ، إذ صدرت له مقالات عدة في هذا المجال . ترجم إلى اللغة الداغستانية اعمال بوشكين ، ليرمانتوف ، ماياكوفسكي وغيرهم .

كذلك ترجمت أشعاره الى العديد من لغات الاتحاد السوفييتي والى لغات أجنبية عدة .

كان له نشاطات أخرى تتعدى حدود الأدب . فهو عضو في الحزب الشيوعي السوفييتي منذ عام 1944 وعضو في مجلس السوفييت الأعلى لأكثر من دورة وانتخب عضواً في مجلس رئاسته «البيريزيديوم» لدورته بين عامي 1962 ـ 1966 (**) . كما ساهم في أنشطة جمعية الصداقة بين شعوب اسيا ـ افريقيا بصفته عضواً في مجلسها ويترأس اتحاد كتاب داغستان منذ عام 1951 .

(**) ـ اعيد انتخابه في بيريزيديوم مجلس السوفييت الاعلى عام 1971 ـ المرجع قاموس الموسوعة السوفيتية الكبرى باللغة الروسية صفحة 273 .

ومع هذا فالذئب ليس
على الحصان

ما إن سرت في الممشى الطويل ، المفروش بالسجاد ، حتى رأيت ذلك الانسان ، الذي ذهبت من أجله ، أن تخطىء في التمييز هذا شيء ممكن ، لكن حيث الشيب الحمزاتوفي المميز والسمنة القفقازية البارزة وهدوءها ، يصبح من المستحيل عدم التعرف عليه فوراً .

من المنطقي أن تتقابل مع حمزاتوف آخر ، شبيه له بالشكل ا غير أنه يوجد وجوه تستطيع تمييزها بين مئات متشابهة . وذلك لسمتهم المرحة وهزليتهم الواضحة . كم من المرات شاهدت على الرسوم ذلك الوجه ، الذي بالغوا في توضيح أنفه الاسدي . . حيث يميل الرسامون الى التفاصيل لمعرفتهم بمزاج شاعرنا .

كان حمزاتوف يرتدي بذة رياضية . تصوروا : جسم ممتلىء ، مشية ثقيلة ومتزنة الى حد ما ، ومناسبة لسنوات عمره ، ببذة تدريب خفيفة ، ومع ذلك أعود للتفكير في ذلك الممشى السجادي .

لا نزال نخطو أحدنا نحو الآخر . حاولت أن أبحث عند حمزاتوف عن أي شكل أو علامة رياضية ما ، إلا أنني أعترف أنني لم أجد فيه غير ما يناسب لعبة النرد .

وشوش حمزاتوف قائلاً ، عذبوني بهذه الاجراءات ، كأني به يجيب على التعليق المتوقع على هيئته ، دخلنا الغرفة ، تفحصت بنظري طاولة الكتابة . كان

هنالك كثير من القطع الورقية ، مبعثرة هنا وهناك ، مكتوب عليها بخط دقيق - من المفترض أن يكون باللغة الداغستانية ، أظن ذلك ؟ طبعاً من عدا الشعراء ، يعزل نفسه ليكتب خلف أحد الأعمدة ؟ من هنا انطلق حديثنا الذي استمر عدداً من الأمسيات .

■ إن منتجع نياتيغورسك - مكان مدهش وغير عادي من أجل اعادة استجماع القوى وراحة العقل - كيف تنظر هذه الموهبة لاجراءات «الريجيم» والعلاج ؟

● إذا كان هنالك قدرة على الكتابة ، فإنها ستوجد في كل مكان : في عربة قطار ، وحتى من على ظهر المشتري الذي يقف أمامك في الطابور أمام أحد المخازن ، وإذا كانت هذه المقدرة غائبة ، فلا يساعد في ايجادها لا ميخائيلوفسكي ولا ريشة بوشكين الأصلية ، ولا حتى وصول آنا كارنينا الحديثة بدعوة مُبرقة .

أتذكر جيداً كيف تسنى لي أن أكتب في موسكو بشكل ممتاز ، عندما كنت أتمشى على كورنيش تفورسكي - في الممر تحت الأرضي لمعهد الآداب . حيث كنا ، ستة عشر طالباً (نوابغ) - عشنا في منزل الطلبة ، وكنا نتسابق على قراءة هذه الأبيات ، حتى قبل أن يتمكن الحبر أن يجف عنها ، وكنا نسعد لفوز الآخر ، كأنه فوزنا .

كان الشبان أسخياء في المعاشرة ومتواضعين . إلا أنه ومع مرور السنين كما لا يخفى عليك أصبحت العقيدة تتطلب اعتزالاً . إن الابداع كالحب يتجنب المراقبين .

فمن غير المناسب ، أن تكون حالياً في ساحة اجتماع أو في ورشة تعاونية ، ولا يلائمك جو اجتماعي ، أو جو عائلي على السواء !! - إن الشاعر محدث لنفسه لنظيره الآخر الذاتي وباللا شعور يتحدث مع كامل العالم .

أمر طبيعي . لكي تتمكن من الكتابة ، يجب أن يتوفر لك جو اجتماعي مناسب .

■ كيف تفهم الجو الاجتماعي المناسب ؟

● بشكل عام ، عندما يحيط بك جو فيه قليل من الحقد ، والاتهامات المباشرة والضارة هذا ما يتراءى لي ، الصاعقة لا يمكن احداثها من صوامع الشعراء ، جميعنا يتنفس الهواء نفسه ، وإذا جلب لنا الهواء بذور الشك وعدم الثقة والمعارك الكلامية ، فكيف يمكن للشعر الغنائي أن يعيش ، وكيف يمكن للمشاعر العاطفية أن تعيش ؟!

لهذا ، أقول أحياناً : مع وجود ظروف مثالية تؤثر على الكتابة ، لم يعد هنالك شيء يكتب ، لأن الجميع ذهبوا بخصوماتهم حتى النهاية . وكل يقدم وجهة نظره ، وكثيراً ، ما يعتبرها ذات أهمية عالمية ، متناسياً أن الجهال وحده هو القادر على إنقاذ العالم .

أما بالنسبة للشعراء الآخرين ، فقد توقف الشعر عن أن يصبح شغلهم الشاغل ، هنا ـ مقالة ، وهناك ـ مقابلة ، وفي مكان آخر ـ لقاء حول طاولة مستديرة . . وبين هذا وذاك ـ لا يمكنك أن تلتقط نفساً . تذكرنا أشعار اليوم على الأغلب بذكور الإوز : تسبح بعض الشيء وتطير بعضه الآخر ، وأحياناً تطلق الاصوات . وتصبح حتى الاشعار المجيدة ، غير مرغوب بها لدى هيئات التحرير . وحدث أكثر من مرة ، أن أُهمل الشعر . لكن الاهتمام لا يلبث أن يعود اليه من جديد . فهل تغير الجو في بلادنا ـ أم أننا أصبحنا أكثر طيبة وأكثر تقبلاً للشعر بغثه وسمينه .

■ تتخلل كلامك مرارة كبيرة ، هل تختلج روحك الآن بزمن جدال حاد ؟ لكن ، ألم يكن الابداع الثقافي يحلم بهذا على الدوام ؟

● أنا لا ادعو أصدقائي الى ذلك . وليس ضرورياً محاولة إعماء قمر واحد صغير بأعداد لا متناهية من النجوم ، إلا أنه يجب على الجدل الأدبي أن يحمل الاهتمام الاجتماعي بالذات ، لا أن يعكس كبرياء الذوات ، سابقاً كان الكتاب يتنافسون على الكتب ، أما نحن ـ فنتجادل على عدد الاصدارات والنسخ . كم أصدر كل منا ، وكم حصل من النقود ثمناً لذلك ، وكيف نستطيع الحصول على الجوائز الفنية الوطنية . وأحياناً يتخذ الجدل اشكالاً دوغمائية بحتة .

سابقاً ، لم يقدم المتجادلون أبداً على تحقير المشاعر القومية . أما الآن فسرعان ما تجد على صفحات المجلات وبشكل فاقع تكتلات قومجية تصارع بعضها الآخر ، ويتم الافصاح عن أسماء المتجادلين ، لسبب وحيد وهو معرفة الانتماء القومي لهذا الاسم أو ذاك . وكأن هذا أو ذاك ـ ليس إلا دعاية أو علامة بارزة عن الموهبة . وتنهال اتهامات عديدة بالشوفينية أو باللا انتماء .

هناك لدى الكتاب الشيء الكثير ، الذي يجب أن يميطوا اللثام عنه ، إن كان في بلدهم أو في العالم . ولكننا نضحك على أنفسنا ونبدأ بتقريع أحدنا الآخر . مع العلم أنه يمكن وببساطة صنع جراح كثيرة بواسطة إبر دقيقة . لنتذكر كم من الناس استشهد من جراء الشبهات فقط . وأشكر الرب ، على أننا نسير الآن بعيداً عن طريق الخوف والجزع والارهاب . وعلى الأغلب لأن الاطراف المتحاربة خلدت للراحة .

■ لكنك كما أعتقد ، بعيد جداً عن مختلف أنواع التكتلات . كما أظن تعاني من الاحباط . هل هذا موقف واع منك ؟

● في الحقيقة ، أنا لا أنتمي الى أي تكتل . لم تسترعني مثل هذه الصرعات ، كل فنان ـ يشكل دولة ما ، صغيرة كانت أم كبيرة ، ولهذا فإنني أحافظ عن طريق أدبي على بيتي في جبال القفقاز .

يوجد موطن ، ولا يوجد تكتل لماذا ؟ إن التكتل يفقدك حرية المحاكمة . إذا انتمى الشاعر الى إحدى التكتلات ، هذا يعني أنه لا يستطيع أن يكتب عن التعاسة ، وتكون هذه الناحية ضعيفة التطور عنده ، وغالباً ما تستغيث . لا يمكنني أن أتصور أن ليف تولستوي ودوستوفسكي ، اللذين كما هو معروف لم يحبا بعضهما ، كانا دائماً يبحثان عن طرق للاختلاف ، بل على العكس كانا دائماً يبحثان عن طرق للتعاون المتبادل طوال حياتهما . أما الآن فكتابنا على استعداد للتناحر حتى مماتهم .

لا أحد يتكلم الآن عن الابداع ، وابتعد النقاد عن أخذ الناحية الفنية بنظر الاعتبار وحتى عن جمالية الفن ، يتجادلون باللوائح الاسمية ـ لائحة ضد أخرى .

لكن أين هي الروايات والقصص والاشعار الوليدة ؟

لقد غاب عن هيئات التحرير الاختيار النقدي . وهي لا تنشر إلا الأدبيات الفارغة ، عديمة الفائدة .

يمكن أن يكون السبب ، في أن زمننا لم يستقر بعد من جراء تأثير العواصف والزوابع الى الآن ؟ قد يكون من المفيد والضروري أن نبتعد ونتمعن في هذه الظاهرة بوضوح ؟ الأمر لا يتعلق بصدى بعيد ، المهم زاوية النظر . عندها ستصبح الرواية التاريخية حداثة . لا أدعو الى العجلة ، ولا يزال من السابق لأوانه انتظار روايات تتكلم عن التغييرات الحالية ، ولا تزال تؤلمنا الجراح القديمة كأننا نفكر بسببي آلامنا : الحصان ، الطريق ، أم الخيال ؟ (الفارس) .

■ وهل لا تزالون على موقفكم المعلن : «ليس الذنب ذنب الحصان ، بل الذنب هو ذنب الطريق» ؟

● نعم ، الطريق ، لا يمكن للعصا المعوجة أن تقدم ظلاً مستقيماً ، ونحن لا نزال نحاول أن نقوم الظل ، بدلاً من قيامنا بتقويم العصا . تحملنا الاضطهادات الستالينية والارادوية الخروشوفية والركود البريجينيفي ، لكنها جميعاً كانت ظلالاً . آن الأوان للاجابة على السؤال الجذري : لماذا استطاعت كل هذه التجاوزات العيش والاستمرار في أطر الاشتراكية ؟

نسمي طريقنا بالطريق الليثيني ، على الرغم من أن كلاً منهم كما هو معروف سماه كما راق له . . سميت السنوات التراجيدية للاجبار وللإكراه بمرحلة الانتصار النهائي للاشتراكية . وأثناءها كانت الضحايا تشدو : «لا أعرف بلداً ، يستطيع فيه الانسان أن يتنفس بحرية ، مثل هذا البلد» . بدأوا يتحركون باتجاه الاشتراكية المتطورة ، لكن كيف ؟ بواسطة الشعارات والاستعراضات المثيرة . وهل تظنون الآن أن الكلمة تساوي الفعل ؟ لا . وكما كان في السابق فإنه يجري هنالك نهر عريض بين الكلمة والفعل ، كما أن هنالك جبلاً عالياً بين الخيرات وبين تحقيقها في الحياة .

نحن بدأنا من «البيانات» و«الرأسمال» ماذا حدث ؟! لم يبق لدينا سوى

البيانات ! ويبقي الرأسمال كاملاً لديهم . أولئك الذين عاشوا وعملوا بعقل ، والذي حدث هو أنه صنعنا ومنذ البداية من الفلاحين المهرة ، عمالاً غير مهرة ، وبعدها انتقل هؤلاء العمال لتحمل مسؤوليات قيادية ، وصنعنا منهم شخصيات مكتبية ، وبهذا انتقل الفلاحون ليصبحوا (عالة) على البلاد ، وإعادة المديرين الحاليين إلى حالتهم الفلاحية السابقة أمر بمنتهى الصعوبة . فعلى سبيل المثال ، يمكنك أن تصنع من الشاعر رئيساً ، لكنه لا يتسنى لك فعل العكس دائماً .

هذه هي طريقنا التراجيدية ، وفكروا : هل هو مذنب ذلك الحصان ؟

■ معيداً عبارتكم «لا تكن متعجلاً في تبديل دور الأحصنة» فإنكم بحكمكم العام ، تحذرون من التغييرات السريعة أو المتسرعة ، التي تتبدل فيها مواضع الثقة وتنقل الى أناس آخرين ؟

● نعم ، وصل الى كل مكان أناس جدد ، عزلوا أصناماً واستبدلوها بأخرى جديدة . وهذا ما أخشاه : كأنك تكدس السماجة والتجاوزات بانفعال وتسرع . ويجب هنا أن نتصرف بترو وحذرٍ ومسوؤلية . . لنأخذ الأدب ، المجال الأقرب لي . لماذا يهملون الآن اسم نيكولاي تيخانوف على سبيل المثال ؟ ألأنه فقط لم يكن من عداد الذين صفوا ؟ وتكون النتيجة : لو أنه سجن أو أعدم في العصر الستاليني ، لكان يجب علينا أن نرفعه على أعناقنا ؟ إنه لشاعر عظيم ، وهل من المعقول أن يكون لعامل البيوغرافيا تلك الأهمية الحاسمة ؟ وما الذي منح لنا في البدء ، الموهبة أم البيوغرافيا ؟ لماذا طوى النسيان ايساكوفسكي ؟ لماذا لا يذكر ريلنكوف ، نيكولاي ايشاكوف ، مارشاك . . نعم ، لأنهم في زمن ما ، قلدوا أوسمة ما ، ونتساءل هنا : هل تحمل كلماتهم الغنية وزناً ما ؟ وهل كانت الأوسمة فارغة من المضمون ـ وهم الآن ملعونون ؟ لقد تم تقريباً نسيان غالاكيتون ، تابيدزة ، تشيكانان ، سامير فورتون تورسون ، زادة ، ريلكمي ، نيتشينا ساسيور . . ليس في هذا شيء من العدل . بضربة واحدة قاضية يجري محو أجيال أدبية ، ويجري ابراز أسماء فقط لأنها كانت في فترة ما تحت العقاب وفي زوايا النسيان . تماحكوا حول غوركي : «إذا لم يستسلم العدو ـ سوف

يصفونه» . . لاموا مایاكوفسكي على «ايها الرفيق كلمتك طلقة» ! لنفرض أن هنالك خلافاً حول وجهات النظر ، لكن الى جانب هذا الخلاف يعيش شيء آخر ، وهذا الشيء الآخر ليس بالقليل . حتى شولوخوف ، أصبحوا يتذكرونه بحذر ، كذلك فورمانوف وفادييف . . والقائمة هنا تطول ، والذي يحصل أن هنالك من يحاول أن يعيش الحياة من جديد ، انطلاقاً من يومنا الحاضر فقط ، لكن كانت هنالك حياة حية ، تلك ، التي عاشها الكتاب مع الجميع بحلوها ومرها . هل يمكننا أن نتجاهل ذلك ؟ لم يعش على أرضنا في يوم من الأيام ، صفوة من القوم الشجعان الجيدين فقط . لكن ألا تلاحظ أن عدد الانتهازيين قد ازداد في هذه الأيام ؟ فكل واحد منهم أصبح ماتروسوف (*) ، بعد معرفته وتيقنه من أن أحداً لن يرمي النار من تلك الدُشمةِ .

انظروا الى الهلع المتولد في المجتمع ، نتيجة الإسراف في استخراج الموارد الطبيعية ، بينما لم ننفعل كما يجب لما يحدث في المجال الروحي ، أياً كانت الجهة ، التي يرمي الفنانون أنفسهم إليها .

يجب احترام تاريخنا الخاص . لقد ذكرت في روايتي «بلدي داغستان» بالمثل : إذا قمت بالإطلاق على ماضيك بمسدس ، فسوف يقوم المستقبل برميك من مدفع .

■ نحن الحاضر ، بلد المشاكل ، كما مصر - بلد الاهرامات ، أحياناً يتراءى لنا : أن الاهرامات عالية لدرجة أنك لا تستطيع أن ترى منها روعة السماء . هل ترهق مثل هذه المشاعر روح الشاعر ؟ أم أنه من الاسهل على الشعراء (العاطفيين) تحملها ، فعندهم يقوم العقل بدور مانعة الصواعق ؟

● أظن أن هذا مفيد للأدب ، بسبب وجود مشاكل ، أما بالنسبة للحياة - فعلى العكس ، وبالنسبة للفن - فالأمر طبيعي . عندنا في الأدب وخاصة في الشعر ، سادت الأبحاث فقط . والبحث من فضلك مشكلة لا تمت بصلة لهذا وذاك ،

(*) - جندي سوفييتي سد دشمة الرمي المعادية بجسمه في الحرب العالمية الثانية لكي لا تصل نيرانها الى الجنود السوفييت المهاجمين - المترجم .

ولماذا نحتاج الى مثل هذه العقد الصعبة في الفن ؟ حُلت مسألة العلاقات القومية منذ أمد بعيد ، ومشاكل «الآباء والأبناء» غير موجودة ، وليس هنالك مبرر للحزن ، أو للتشاؤم أيضاً . لقد اقتُرِحَ على الكتاب تقديم إبداعات ما وما يقبل منها الآن للنشر لا يختلف كثيراً عن الإملاء المدرسي .

والآن ، لا بد من التفكير والتمعن والقياس ، لا التعمية . إن هذا مفعم بالظلام . واذا كان هنالك كتاب يستهويهم النوم ، فأي كتاب هم ؟ . .

الأسئلة كثيرة ، السلطة والشعب مسؤولان عن حلها جميعاً ، أما مهمة الفنان فهي فضح الظاهرة ، تعريتها وصعق القارىء ، وهذا بعيد عن الحل المباشر ، فلو أن تشيخوف تفرغ للنضال ضد فاعلي الشر ومتقلبي الطباع ، لما بقي لديه أي وقت لكتابة اقصوصتين من أقاصيصه فقط .

■ كيف يقال في مثل هذه الحالات : نحن لسنا أطباء ، إننا ـ المرض ذاته ؟

● هكذا بالضبط ، لكن ولكي نستطيع التطبيب والاستطباب ، لا بد من الايمان ، وبدونه ـ لا يمكن ذلك أبداً بأي شكل من الأشكال . .

■ أيمكن أن نكون قد فقدنا مثلنا الاخلاقية ، ولا نستطيع إعادة المفقود ؟

● وكيف يمكن أن لا نكون قد فقدنا ، إذا كنا تمسكنا بالقوانين الواردة في الدستور خرقنا وبدون تكلف (والى الآن نقوم بخرق) تلك الاعراف ، التي لم تدون على مر العصور لشعوبنا ـ احترام الأكبر ، رعاية الأم ، الاخلاص للصداقة ، الكرم . . وكثير من العادات والقيم والأناشيد . حتى اللغات سقطت مع سقود العديد من الناس . لهذا ظهرت الأنانية في كل مكان وبأشكال مختلفة : الاقتصادية ، الايكولوجية ، الدينية ، القومية والشعوبية .

لنأخذ الثقافة كمثال : يتقلص الآن في داغستان عدد الكتب ، الصادرة باللغات القومية ، وإذا صدرت فإنها تصدر بعدد قليل من النسخ ، انظروا إنها لا تجلب أي فائض للناشر ـ ولهذا فإنهم يتجنبون وضع مثل هذه المخطوطات في خطط نشرهم . لكنه لا يجوز لنا أن ننطلق من منطلق القوة في التقدير وخاصة أثناء قيامنا بتطوير البدايات الروحية ، فليست هنالك لغة انتشرت بشكل واسع وأصبحت عظيمة القوة كاللغة الروسية .

■ مبدئياً ، أعتقد أنه وبالذات أنت ، لا يجوز لك أن تعتب على اللغة الروسية ، لأنها بالذات هي التي جلبت لك هذه الشهرة الواسعة ؟

● أنا لست عاتباً ، بل على العكس ، أنا على أتم الاستعداد للركوع وتقديم الطاعة للغة الروسية ، ولروسيا كوطن أيضاً . إن تمنياتي الطيبة تتحدث ، على أن الذي جعل مني شاعراً هم المترجمون الروس . أنا لا أنكر ذلك ، فقد اهدوني الآلاف المؤلفة من الاصدقاء . وهذا عيد قومي لروحي .

إنني أصرح بذلك بكل انفتاح ورضى ، على الرغم من معرفتي الآن أن هنالك الكثير ، ممن يقرعون الطبول : وخاصة عندما يسود في بعض الأمكنة شيء ما من عدم النظام ـ موسكو المخطئة ، الروس هم المخطئون ، إنه هراء ، لا يجوز ، أن نجعل من الروس حجة على الطالع وعلى النازل ، وكما يقال في القفقاز : «الأحمق في قرية جبلية ، هو من يؤنب جاره» .

إضافة الى ما قدمت لغتنا هذه لأدبياتي ، فقد اطلعتني على شكسبير ، موليير ، غوته ، هاينة ، توغار وشيفشنكو . وبدونهم كيف يمكن العيش لأي فنان ؟ انني على الدوام أحتفظ برائحة عطرة لكل ذلك . ليس هنالك جنوب دون شمال والشمال ضروري للجنوب . وعلى الأخص فيما يتعلّق بي ، فإنني بدون القارىء الروسي ، كنت كالذي يطير بدون أجنحة . فبعد أن تحدثت عن أمي ، تسلمت رسالة مثيرة للعواطف . من أين تظنون ؟ إنها من فلاديفاستوك . أتكلم عن الاخوة الشهداء ـ ومن جديد يصدح صدى ذلك من روسيا . إنه شعب طيب وشهم وقريب من القلب . . لكنني أرى أن هنالك شيئاً لا يجوز الاقدام عليه ، وهو تشويه التاريخ . إعادة توحيد داغستان مع روسيا وبإرادة حرة ـ لماذا هكذا ؟ كان هذا هراءً وغضباً . ولم يكن بأي شكل من الاشكال قريباً من الحقيقة . ناضل شاميل ربع قرن لكي لا تصبح القفقاز مستعمرة قيصرية . إلا أنه لا يوجد الى الآن أي تمثال لشاميل . أما الجنرالات الروس الذين أسروه فقد صنعنا لهم التماثيل ، ليرمانتوف ، بيستوجييف ، مار لينسكي ، جميعهم نصبوا كأبطال الاستقلال . في الحقيقة أنني لا أحب أحد السطور من كتابات

بوشكين : «كن مطواعاً أيها القفقاز ، فقد قدم يرمالوف» . إلا أنني أسامحه على ذلك انطلاقاً من عظمته الشعرية فقط . إن اليورمالوفات تصل وتغادر ويبقى مع ذلك الشعب الروسي الأممي .

■ انكم تدافعون عن داغستان وأبنائها الجبليين ، غير أن القارىء ليس جاهزاً على الدوام للدفاع عنكم . فمنذ زمن ليس بالبعيد وصلت الى هيئة تحريرنا رسالة من داغستان ، واعذروني على تقديمي لها : «رسول حمزاتوف ـ ليس بالشاعر العظيم ، لأنه (مطرب الركود) والمجد الذي حصل عليه كان في العهد البريجينيفي . كان يعيش في عصر بريجنيف حياة ليست بالسيئة ، حتى في أيام ستالين» . أجيبوني بكل صراحة . هل تغضبكم مثل هذه الرسائل ؟ أم أنكم تديرون لها ظهركم .

● من الطبيعي أن يخزني حب الذات ، إلا أنني لست بمستعد للدخول في هجوم مضاد ، أولاً ، أنا أعرف أنني لست بشاعر عظيم . وأكون في هذا على أتم الاتفاق مع كاتب الرسالة . ثانياً . انني لم أتذوق الى الان طعم العظمة الشعرية . يمكن أن يكون لدي بعض من شعبية ، غير أن المجد ـ هو شيء آخر تماماً . الى جانب ذلك ، لا أظن أن الشاعر ـ إذا كان فناناً حقيقياً يقوم باستغلال مراحل عاشها كالخروتشوفية البريجنيفية وغيرها . إن البرجوازي الصغير (ضيق الأفق) وليس الشاعر الحقيقي هو الذي يقوم باستغلال ذلك . واليوم وكما كنت في سنوات بريجنيف فإنني لا أزال أغني «الغرانيق» وكل غنائيتي تنحصر في : حافظوا على أطفالكم ، صونوا واحترموا أمهاتكم .

ويعد أن عشت هذا الكم الحياتي ، أتمعن الماضي فأرى : أن كل ما تعلق بالسياسة من أشعاري أصبح مع الاسف يفتقد الى أبدية ما . إنني أتأسف على الكثير ، أتحسر لانني لم استطع قول ما كنت أريده أن يقال ـ لكن ما هو حجم هذا الذنب الكبير : كتب شيئاً ما كان يستطيع أن لا يكتبه . حدث مرة أن وقفت أمام التقويم فعبرت كما عَبَّر تفار دوفسكي : كان الأفضل لو أنني لم أفعل ذلك . أنا مذنب وأحب البدايات القومية المتأرجحة ، أكتب عن الوطن عن الحب ، عن بيتي في جبال القفقاز .

يحلم الناس بالطيران الى النجوم . وإذا كنا لا نستطيع نحن البشر أن نجد طريقاً يوصلنا الى بعضنا . فكيف سنصل طائرين الى النجوم ؟

قد يكون أنه وفي ساعة ما ، تمكن نبي الاسلام محمد من التحدث مع الرب ، ـ «الساعة الثالثة» وهذا العنوان ، أطلقته على أحد كتبي . جميعنا مسرعون ، نسرع بالتشاجر أحدنا مع الآخر ، نحاول البرهان على صواب رأينا ونقوم بتصرفات غبية طائشة . ودائماً نكون مشغولين بأنفسنا ، ولا نجد الوقت لمراسلة صديق أو تقبيل أمهاتنا على وجناتهن . ولا بأي شكل تكفي تلك «الساعة الثالثة» وبعدها نصل الى الندم ، ويحصل أن تصل الى مرحلة يكون فيها من غير الممكن إصلاح التصرفات الشخصية أو الأخطاء . إن لحظة عودة البصر ، هي لحظة مريرة . . بهذا أفكر قبل كل شيء .

يمكن للشاعر أن يصنع من أله ـ ألم الشعب ـ لحظة الخلود . . وإذا لم يكن هنالك فنانون وعقلاء ، فإنه على العكس ستتحول الابدية الى لحظة .

■ هل تتذكرون قول باسترناك . «وهنا ينتهي الفن ، من هنا تتنفس الأرض ، ويتنفس المصير» ؟

● باسترناك ـ إنه شاعر الخلود ، حيث ضمن كامل معنى الشعر في هذين السطرين فقط . غير أنني وعن الشعر بالذات ، لا أريد أن أتوسع بشكل عام . يتطلب الشعر القراءة وليس التعليق وبغير ذلك ، يكون كل ما تكتبه إما هراءً أو مفتقراً الى الدقة .

■ هل مر حادث في حياتكم الشخصية ، خجلتم به من فعلكم الخاص ؟ سواء كان هفوة أو صمتاً.

● حدث ذلك ، كل شيء يحدث . . مرة جلست مع زوجتي في مطعم «باكو» في موسكو ـ حيث يقع هذا المطعم مقابل بيتي ، وفجأة وصلني من أناس لا أعرفهم ، من طاولة مجاورة بعض العبارات المكتوبة على محرمة ورقية : «كيف حدث هذا ، الشاعر حمزاتوف ؟ إنكم الى الآن لم تكتبوا عن الغرانيق الافغان» .

أثناءها تراءى لي أن هنالك توابيت من الزنك تسير في اتجاهي : وكل يوم

تقريباً ، كان أحد مرشحي مجلس السوفيت الأعلى يحمل لي رسالة تعزية ، ومع ذلك سيطر على شفاه ذلك الشاعر الصمت . حفرت هذه العبارات ، التي وصلتني في المطعم وتلك الرسائل المغموسة بالدموع ، اخدوداً عميقاً وألماً سيستمران معي طوال الحياة . . نقوم الآن بتوبيخ «الترويكات» ، التي اتخذت قرارات تراجيدية في سنوات التصفيات . لكن ، هل هم ثلاثة ـ أم أربعة ، أولئك الذين نظموا المسيرة الى افغانستان ؟

■ عفواً ، عفواً . . كنت أحد أعضاء مجلس السوفييت الأعلى ، ضد من تستأنفون الدعوى الآن ؟ كنت تتمتع بسلطة الشعب ؟

● نعم لكن لم يقم أحد باستشارتي حول ارسال أو عدم ارسال فتياننا الى النار . . عرفت عن إدخال القوات كما عرف الجميع من الصحف ويظن الناس أن تصويت ما حصل في مجلس الرئاسة ورفع حمزاتوف كلتا يديه بالموافقة .

■ هنا يطرح مثل هذا السؤال الفلسفي . هل من الأصح أن يكون الشاعر أكثر ابتعاداً عن السلطة ما أمكنه ذلك ؟ لأنه يهيمن ويسيطر على العقول والقلوب وهذا يكفيه ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الصلة المباشرة مع الهيئات الحكومية تستوجب صراعاً مستمراً مع الأخلاق الشخصية .

● لا ، الافضل أن يكون الشاعر في هيئات السلطة من أن يكون مكانه انسان آخر ، لأنني اعتبر وبشكل عام ، أن كل فنان يتميز بالانسانية ويشكل روح الدولة . كل حكومة تفتقر الى الحميمية والاخلاص . وتتألم فقط ، عندما لا يهتمون برأيك .

■ ليس سهلاً سماع ذلك . . لكن لندع النار الافغانية ، التي كوت شعبنا في العمق ولنعد الى قضايا الساعة الساخنة في بيتنا . . على سبيل المثال قضية نشر الكتب ، لقد تطرقتم كما أظن الى طرح الحساب الاقتصادي الحاصل في مجال الروحانيات ، كيف تفكرون ، هل سنصل الى ذلك الزمن ، الذي سنلامس فيه جدران البرغماتية . والتي نبدأ الآن بمحاولة تجاوزها ؟ سيؤدي موضوع الانتاج المادي إلى مقولة ـ السوق . لكن الروح ـ ليست سلعة .

● إذا فكر الفنان بالربح ، لا يجوز أن نعتبره تاجراً ، فالاستقلال الفني ينتهي بهيمنة التبعية المادية . لا يبحث رجل الأعمال في الفن عن ما هو جديد ، والذي يقوم به فقط هو جلخ ما صنع . . طبعاً ، من الممكن إعادة الصلاة مرات عديدة في اليوم ، وهي لعمري لا تفسد من ذلك ، إلا أن الاشعار المأجورة ليست كالصلاة .

حضر مرة روبيرت فروست ، وهو شاعر امريكي ، الى بلدنا واجتمع مع خروشوف ، ودعا تفاردوفسكي الذي استضافه لزيارة امريكا ، ليجمعه هناك بالرئيس . لم يلب تفاردوفسكي هذه الدعوة ولم يسافر .

اندهشت ، لماذا ؟ فأجاب تفاردوفسكي قائلاً : «يا رسول ، لو أنني سافرت ، فسوف أكون مرغماً على الاهمال والتخلي عن قصيدتي «وراء البعيد ـ البعيد» لقد عشت أنا الشيء ذاته ، وحرفياً عشته . وكل ما في الأمر أن هناك سبباً واحداً تنحصر فيه علاقة الفنان مع نفسه وهدفه .

أما نحن ؟ فنتسابق الى مطار شيريمتوف ، حتى عندما لا ندعى . كم ظهر من الأشعار السياحية ! كما أظن أن الشيء الوحيد الايجابي في المكوث خارج الوطن بالنسبة للكاتب هو امكانية الشعور الحاد بالوطن ، عندما يكون بعيداً عنه . أما النوع الآخر من الكتاب ، فيسرع قبل كل شيء الى التبجح بأنه كان في النمسا ، في سنغافورة وقف تحت البرج المتهادي في بيزا . . وكان قد استبدل التمعن والتفكير باليوميات السياحية . . كما لو أنه يحتاج للجغرافيا مباهاةً بذلك فقط .

■ إن تفاردوفسكي شخصية رائعة بدون أدنى شك والى الآن لا يزال الاهتمام قائماً على قدم وساق بمؤلفاته الشعرية وغيرها . كنت قد تعرفت على تفاردوفسكي عن قرب . كيف كان يعيش حياته الاعتيادية ؟

● جمعتنا الأقدار في مشفى كونتسيف أثناء العلاج ، وهنالك تعرفنا على رئيس المحكمة العليا للاتحاد السوفييتي ليف نيكولانفيتش سميرنوف ـ الآن ، هو من عداد الموتى ـ كان يحدثنا وتفاردوفسكي عادة عن بيريا ، عن اعتقاله ومحاكمته ،

إلا أنه ألف كتابه عن آخرين ـ عن المجرمين العسكريين في طوكيو . عندها لم يتمالك تفاردوفسكي أعصابه وقال : «اسمع ، إنك شاهد على العديد من المحاكمات وتعرف نوابضها . خذ القلم واكتب عن هذا ، ما الذي رأيته وبماذا شاركتْ ، ما يفيدنا يابانك البعيد !» . عندها اضطرب المستمع وقال : لو كنت أعرف ، لكتبت حتماً .

هنالك في منتجع كونتسيف ، كان مولوتوف يقضي إجازة . تقابلت معه عدداً من المرات ، وكان ذلك ممتعاً بالنسبة لي . أما تفاردوفسكي فكان دائماً يؤنبني على ذلك قائلاً : «لماذا نجتمع معه ؟ . . إنه بارد جداً» .

بعد ذلك ، دعاني مولوتوف مرة الى بيته ، وكان قد تسنى لي أن أرى مجموعة كتبه ، ووجدت بينها تلك ، التي قدمت كهدية من قبل تفاردوفسكي ، وكان موجوداً على أحد هذه الكتب هذا الإهداء : «إلى عزيزي فياتسلاف ميخائيلوفيتش مولوتوف ، إلى ذلك الانسان ، الذي قدم لي مساعدة في زمن صعب ما» .

■ لماذا غاب عن تفاردوفسكي استذكار الجميل السابق ؟

● لقد قَدِمَ زمن آخر . تبدلت العلاقات ، ويمكن أن يكون لتفاردوفسكي معرفة بأمور ، لم أكن أنا على اطلاع بها .

. . . وعندما كنت أزور موسكو قادماً من داغستان ، كنت أمكث عادة في الفندق ، وكان تفاردوفسكي يزورني أحياناً فيه ، وفي إحدى المرات جلسنا خلف طاولة خيم عليها جو من الصداقة ، وإذ بالشاعر الكسندر براكوفييف يدخل علينا (كان يتزعم منظمة كتاب لينينغراد) . وجه تفاردوفسكي الحديث لضيفنا قائلاً : «اسمع يا ساشا ، ما الذي يجري عندكم في لينينغراد مع هذا برودسكي ؟» . أشار براكوفييف بيده وقال : «لا تعره أي اهتمام . انه مذبذب وطفيلي . .»

«لكن لماذا محاكمته ؟» «إنه شاعر سيء . .» ، قال تفاردوفسكي : ـ«لنفرض ذلك ، لكن لماذا المحاكمة» ؟ «هل اعتقلوه حقاً ؟» . . ثانية الاعتقال ؟

ـ اضطرب تفاردوفسكي وصرخ ـ اخرج من هنا ووجه الحديث إليّ قائلاً : «رسول ، إما أنا أو هو» أجبت : «كلاكما شاعر روسي ، إنني لست على استعداد لطرد الضيوف ، أعطي كلاً منكما خنجراً ـ فليذبح أحدكما الآخر . . » هذه بعض من مشاهد أتذكرها عن تفاردوفسكي .

■ إنك كما هو واضح متعاطف مع تفاردوفسكي . . لكنه ليس بالشاعر الوحيد القريب منك ؟

● انني بشكل عام ، أهتم بأولئك ، الذين يختلفون عني بإبداعهم ، على سبيل المثال فاز نيسنسكي ، إلا أنه يجب التفريق هنا بين : الشاعر الجيد والشاعر الممتع ، فالأخير يثير الانتباه قبل غيره ، لأنه يلعب بالشكل بصورة مفاجئة مبتعداً عن العادة السائدة إلا أن هذا الشيء أضعف من أن يصبح ظاهرة في واقع الأمر . إن الشاعر الممتع هو شاعر الجيل ، أما الشاعر الجيد ـ فهو شاعر الشعب ، وهما ليسا بواحد . إن الشعر الحقيقي هو ذلك ، الذي يلامس البشر ، الذين يتراءى للوهلة الأولى انهم بعيدون عنه «قتلوني حول رجاف» . هذا أكبر من الشعر ، حيث الحياة على حقيقتها ، حيث الألم . .

■ هل يوجد شعراء ، لا تستطيعون فهمهم ، بما لهذه الكلمة من معنى ؟

● نعم ، وغالبيتهم من الشباب . زار أحدهم شاعراً قديماً في المشفى . سأله : «كيف الصحة ؟» فأجاب : «لا أريد أية صحة ، أريد الموت» «لماذا ذلك ؟» «برز الآن شعراء من الشباب ، لا يفهمونني وأنا كذلك لا أفهمهم» .

طبعاً ، لا يعتبر هذا سبباً كافياً للموت ، إلا أن هنالك مشكلة قائمة . لا أفهم ، ما هي الحاجة لكتابة شيء لا يُفهم ، إننا مدعوون لتوصيل الافكار والمشاعر : لا إلى ترميزها الى الحد ، الذي لا يستطيع أحد أن يفهم عنده شيئاً منها . إنني أوافق على أن قاعدة مهنتنا هي القلق ، ولدى الشباب ما يكفي منه . إلا أن القلق ـ ليس هو الشعر تماماً . يجب أن نعبر عن المعاناة .

إن أعقد القصائد ، حسب وجهة نظري ، تتطلب دقة خاصة وبساطة في الشكل . وأخشى أن تفسر هذه الكلمات كتنظير ضد التجديد . لا أعترف

بالفن ، ذي القوالب الجامدة . إلا أنك تستطيع كتابته بشكل جديد محافظاً على فهم الناس له .

إن الأمر لا يتعلق بالعمر ، الشعراء الحاليون ـ أترابنا وأبناء بلدنا وما يحزنني هو البهرجة والتسرع عند مؤلفين لا يفكرون بالرب وهم جالسون خلف طاولة الكتابة ، وعندما يحضر أحدهم ليروج النشر ـ يقرأ القرآن كاملاً .

غالباً ما يفرحون لخير أصابهم ، فسابقاً لم يكن الجبلي يصلي لخير بيته ، بل لخير جميع البيوت الجبلية . ولخير كامل داغستان ، وحتى لخير كامل البلاد . . وهذه سلسلة طبيعية للمعاناة الانسانية . والآن تنمو الانانية عند الناس بشكل فاقع : «اعطني المزيد والمزيد حتى وإن لم ينم العشب هناك ، فهذا شيء لا يهمني» .

في الواقع ، الاخلاق تستغيث . . . عندما حدث ما حدث في تشير نوبل ـ بدأ الناس يشعرون كيف اننا نحن بشر الأرض ، نحتاج احدنا للآخر . وعندما وقعت كارثة ارمينيا التراجيدية ـ تبين أن المشاعر عند الشعب واحدة ، بغض النظر عن الانتماء القومي أو الديني . إلا أنه تمر المصيبة وتندمل الجراح ، المتولدة من غضب الأرض ـ ومن جديد نعود الى الفرقة ، والى التغرب ، كيف نفهم ذلك ؟ هل المصائب وحدها هي التي تستطيع تجميعنا وتوحيدنا ؟

مثل هذه الاسئلة ، اردت أن أطرحها على الناس . فالكثيرون ولا اعرف السبب ، غالباً ما يفكرون بتميزهم ، وهذا معيب ومؤلم .

تسنى لي أن اكتب عن أحداث ارمينيا واذربيجان ، أردت المصالحة ودعوت للأخوة معتمداً على نداءات كلاسيكيي هذه الجمهورية وتلك ، وماذا ؟ وصلتني رسالة تقول : لماذا استشهدتم بكلاسيكينا الجدد ولم تذكروا الكلاسيكيين الأوائل ؟ حتى التعاقب يُغضِبهُم وأنا ، الخارج من داغستان ، اين مني العقيدة الاسلامية ، فهناك يهددوني بوضع صليب على لحدي بعد الموت ويرسلون اللعنات ، إن المنغصات الحالية تعمي لدرجة أنها تفقدك العقل .

وصلت الأمور الى درجة ظهور من يستهزؤ قائلاً : «يا أصدقاء ، إن اتحادنا

رائع !» ، نعم عشنا حتى هذه المرحلة . وسبب ذلك ، الخرق المستمر للقواعد المضيئة لاتحادنا . فكروا بهذا الأمر فقط : إننا لا نسمع ولا بأية لغة من لغاتنا القومية ، بما فيها الروسية نشيدنا الوطني ، وروسيا الطروبة لا تملك اي نشيد وطني ابداً ، لجامايكا الصغيرة نشيدها وروسيا لا تملك ذلك . . . وبسبب الإزعاج المتراكم ، ذهب بعضهم الى درجة التطرف عندما أصبح يشكك بضرورة الأخوة السابقة ، وأظن ، انه يشك كثيراً بصحة ذلك . لكن أليس غريباً ، انهم يبحثون في الغرب عن كيفية تشكيل الولايات المتحدة الاوروبية ، وعندنا بدأوا بالتفرق : لا ، الأفضل ان نكون وحدنا ، لا أن نكون سوية ، الأفضل أن نفترق لا أن نجتمع .

سابقاً ، كنا في كل مناسبة نرفع لواء التعايش القومي والمضمون الاشتراكي ، أما الآن ، فهناك نداءات تقول : «الشكل فقط ـ اشتراكي ، أما المضمون فهو ـ قومجي» . هل يوصلنا مثل هذا الطريق الى الوحدة الضرورية ؟ لا أظن ذلك .

وماذا فيما يخص الكوارث الايكولوجية ؟ هل يجب أن ننتظر الكوارث لتوحدنا ؟ استعبدنا الأرض طويلاً وارهقناها ، حتى اننا الى الآن لا نرحمها . الينابيع ، التي غنيتها في طفولتي في جبال داغستان ، جف نصفها الآن . أصبحت الانهار ضعيفة كأوتار الكمان ، وهي الآن مقطعة لا تستطيع العزف . اختفت الشلالات انظروا إصفرار الاعشاب ، حتى اسماك قزوين هاجرت لتعيش «كلاجئة سياسية في انهار وبحار الغرب . هذا الثمن الذي ندفعه ، وكان يجب أن ندفع أكثر . فمتى سنستعيد الوعي وننقذ ما نستطيع إنقاذه ؟ ترى أي إله يستطيع اعادة الوعي للناس .

■ والآن لننتقل الى الفوازير ، هل تتذكرون من قال : «عندما اسمع صوت زوجتي ، يصمت صوت الشعب عندي ؟» . ● لا أعرف ، كلازكوف ؟

■ لا ، حمزاتوف في «الساقط على الطريق» .

● إنه ذكاء حاد ومحاولة مفتوحة لإسترضاء المراه .

لكن ، وبشكل عام ، إننا لم نعط المرأة حق قدرها ، ومع الاسف ، حتى حقها الرئيس ـ وهو حق العمل . وفي الحب لها حق محدود ، وسابقاً حتى في الفن كان انعكاسها أكبر ، ألهها الفنانون ، وهذا كما تذكرون لم يقدم لنا شخصيات نسائية سلبية كثيرة ؟ أما تلك الرجولية ـ فعِدٌ ولا حرج . لماذا أحزن كثيراً على البيروقراطي ؟ لانه عديم الحظ ، لم يحلم ولا مرة بامرأة جميلة .

■ كيف تنظرون الى حفلات انتخاب ملكات الجمال ؟

● آه . لماذا لم نعرف هذا سابقاً ، فعندما يقارب عمرك السبعين ـ يفضل أن تشاهد هذا من على شاشة التلفاز ، ولكن إذا تكلمنا بجدية . . . فيجب أن نعترف أن المرأة والحب كانا سابقاً في الحجاب ، وأغاني الحب كانت أكثر حرية وانطلاقاً ، أما الآن فأصبح الحب طليقاً تقريباً ، أما أغنيته فأصبحت في الحجاب وانطباعي ، أنه على الرغم من توحيد الكنيسة مع الدولة إلا أنه بقيت الشاعرية الغنائية وحيدة تعاني من العزلة .

■ وأخيراً هل تقرون هذه التهمة : انك تمتلك شقة في شارع غوركي في موسكو ويُقال أنك رجوت مجلس مدينة موسكو استبدالها بأخرى في شارع يحمل إسماً محايداً غير حزين . . .

● طبعاً إنني أهتم بمجدي اللاحق لكن اتظنون ان هنالك من يجازف في المستقبل ويغير تسمية شارع غوركي ليجعله شارع رسول حمزاتوف ؟ أما الخلود فإنني من مريديه إلا أنه وكما تعلمون هو أسطورة فكاهية صنعتها بنفسي ، أو صنعها اخوتي أو لا اذكر ومع ذلك ومهما كانت صعوبة الحياة ، يجب أن نبتسم .

إلى جنكيز ايتماتوف ـ رسالة من بيروت*

اتذكر يا جنكيز
حينما حللنا ضيفين على بيروت ؟
كان ضوء ازرق ينبعث من السماء والبحر
ودروبها تقودنا الى البعيد

* * *

منحتنا المدينة ملجأً هادئاً
رائعاً في النهار زاهياً في الليل
يقولون عنها باريس الشرق

* * *

يزهو ميناؤها ببيارق بلدان البحار

---

* صاغ القصيدة الاستاذ أحمد صالح ـ المترجم

يعج بالسواح والتجار
كيف ننسى حسانها الفاتنات
وقد تركْنَ لبنا سليبا

* * *

عربي من جزيرة العرب
دنا بعربته من فندقنا وقال :
«أتمنى لك السعادة يا مولاتي
ونثر الورود في النافذة»

* * *

خلابة تلك الاعلانات المذهبة
تشع من الارصفة الى السقوف
مدينة يأكلها الصناع والتجار
لاهية على عتبة الخدمات

* * *

«سيدتي هذا سوار نادر فاشتريه
وسعره يزيد من بهائه
برفضك الشراء تقتلينني
والسعر ليس مشكلة»

* * *

لم يداهمنا أحد بالنار
كيف أنسى ذلك المساء
حينما هز القمر الاراجيح
جلستنا في النادي الارمني

* * *

«لنغن» قال احدهم من خلف طاولته
ومع حفيف أرز لبنان
سيطر الكَرَمُ على الجميع
وما جت القاعة بالغناء

* * *

مسيحي في البار يحمل صليبه
وإلى جواره جلس أحمد
كلاهما يشع فرحاً
تحت نار الخمر

* * *

تحدثنا بلغة واحدة
غنت اجراس الكنيسة
ونادى المؤذن من بعيد
متى نكون بلداً واحداً

«اتذكر يا جنكيز؟ . . .»
من لبنان الأبيض ـ همت بالهتاف
وعندما وصلنا منزل جمبلاط
نحرت على شرفنا الخراف

* * *

قمم الجبال ساطعة
وقبة السماء آمنة ؟ ؟
وكما يقاد الثور من قرنيه
قاد كرامي سلطة البلاد

* * *

تدارت النجمة في الظلام
تلاشت اللحظة في الأبد
غادر الصديق جمبلاط
وبيروت لم تعد بيروت

* * *

عاش فيها اليهود والعرب
تخاصموا واحتدم الكلام
تعايشو وحافظو على حسن الجوار
لم يلجأوا للنار
* * *

يهيمن السواد في الافق
يدوي أزيز الرصاص
«ويسأل الفلسطينيون
أين ايتماتوف ؟»

* * *

لم يأت ايتماتوف
تشغله الكتابة . . . في السيك كول**
فجأة ، تخرج من تحت القصف
صبية كساها الشيب

* * *

ومن هناك
حيث الحطام والدخان
تهذي باكية وليدها القتيل
وراحت تهدهد من كان

* * *

فوق كل سطر أعلن الحداد
وهنا حيث كنا معاً يا جنكيز

** جزيرة في كازاخستان ـ المترجم

أضيف الى حزن قلبي
نصيبك من الكآبة

* * *

عبث كل ما يجري
عبث هذه الارادة الشيطانية
يطلق النار متوشحاً صليبه
على عمامة أخيه

* * *

محمد يمجد المسيح
يمجد النبي ابراهيم
وتحت لهيب نيران الصواريخ
يمضون للقتال في عناد

* * *

إذا خرقت صدري رصاصة
والموت راودني
ايقنت انني سأراك
قاصداً بيروت يا جنكيز

* * *

بالأمسِ في المنام والشاهد بيروت
رأيت أطفال اليهود والعرب
مبتهجين في عناق
على طريق قوس قزح جميل

***

الفهرست

المراجع*

1 ـ الموسوعة السوفيتية الكبرى ، المجلد السابع الصفحات 402 ـ 403
2 ـ مجلة الأزمنة الحديثة السوفيتية . العدد 14 لعام 1990 .
3 ـ المجلة السوفيتية الشهرية سبوتنك ، العدد «2» لعام 1988 .
4 ـ الصحيفة الاسبوعية «انباء موسكو» ، العدد «4» لعام 1990 .
5 ـ صحيفة ازفستيا السوفيتية ، عدد 8 شباط 1990 .
6 ـ الصحيفة الاسبوعية «ابناء موسكو» ، العدد «1» لعام 1990 .
7 ـ الموسوعة السوفيتية الكبرى ، المجلد 19 الصفحات 269 ـ 270 .
8 ـ مجلة الأزمنة الحديثة السوفيتية ، العدد «7» لعام 1990 .
9 ـ الموسوعة السوفيتية الكبرى ، المجلد السادس الصفحة 90 .
11 ـ صحيفة البرافدا ، عدد 4 آب لعام 1989 .
12 ـ كتاب أشعار وقصائد «عجلة الحياة» لرسول حمزاتوف ، مترجم من الداغستانية الى الروسية وصادر عن دار نشر «الكاتب السوفيتي» عام 1987 الصفحات 12 ـ 19 .

---

* حسب تسلسل المواد .

هـذا الكتـاب

من تراجيديا غوركي ، إلى معجزة الإبداع الأدبي الباسترناكية ، إلى سحر حمزاتوف ، يمضي هذا الكتاب ، ليلقي أضواء جديدة على حياة وإبداعات ثلاثة من أعظم كتّاب هذا القرن . وهو في هذا يدعونا إلى النظر في أبرز ما شغل القرن العشرين ، في الأدب والسياسة ، والأديب والسياسي ، ونحن نودع هذا القرن ، ونطلّ على قرن جديد .

* * *

من إصداراتنا الجديدة :

* نحن والبيروسترويكا ـ د. عبد الرزاق عيد .
* ديزي ميلر ـ رواية ـ هنري جيمس .
* في مستعمرة العقوبات ـ رواية ـ كافكا .
* مدارات الشرق (الأشرعة ـ بنات نعش) ـ نبيل سليمان .
* أزمة المرأة العربية في المجتمع الذكوري ـ بوعلي ياسين .
* الرواية والتاريخ ـ د. عبد الرزاق عيد ، محمد جمال باروت .
* نحو ملحمة روائية ـ محسن يوسف .



دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب 1018 ـ هاتف 22339